مذكراتي:

حائرة في الحبّ

بقلم:

محمد حمدي غانم

كتبت في الفترة من يونيو ١٩٩٧

إلى أكتوبر ٢٠٠٠

عن الكاتب

- محمد حمدي غانم.
- من مواليد محافظة دمياط ١٩٧٧.
- خريج هندسة الاتصالات، جامعة القاهرة.
- عمل مبرمجا وكاتبا تقنيا، وله ١٤ كتابا متخصصا في البرمجة تشرح لغتي VB.NET و C#.

السيرة الأدبية:

- نشرت له مسرحية "مجرّد طريقة للتفكير" في العدد ١٦ من "آفاق المسرح" من إصدارات قصور الثقافة، عام ٢٠٠٠.
- نشرت له مسرحية "بين قوسين من الخلود" ضمن إصدارات المنتدى الأدبي بجامعة القاهرة.
- صدر له ديوان "انتهاك حدود اللحظة"، عن مكتبة دار المعرفة، ٢٠١٠.
- صدر له ديوان "دلال الورد" عن قصر ثقافة دمياط، ٢٠١٣.

- يكتب القصص القصيرة والروايات الرومانسية وسلاسل الخيال العلمي، ونشر بعضها الكترونيا على شبكة المعلومات الدولية Internet.

<u>للتواصل مع الكاتب:</u>

- بريدي الالكتروني:

msvbnet@hotmail.com

- مدونتي:

http://mhmdhmdy.blogspot.com

- قناتي على يوتيوب (تحتوي على إلقاء أكثر من ٦٠ قصيدة بصوتي):

http://www.youtube.com/user/mhmdhmdy

- صفحتي الأدبية على فيسبوك:

https://www.facebook.com/Poet.Mhmd.Hmdy

- كتبي في مجال البرمجة بلغتي فيجوال بيزيك وسي شارب:

http://mhmdhmdy.blogspot.com/2010/09/blog-post_9555.html

- صفحة فيجوال بيزيك وسي شارب:

https://www.facebook.com/vbandcsharp

كتب مجانية للكاتب للتنزيل:

رواية "حب في القطار (عمو)":
http://mhmdhmdy.blogspot.com.eg/2015/11/blog-post_39.html

كتاب: "خرافة داروين، حينما تتحول الصدفة إلى علم":
http://mhmdhmdy.blogspot.com/2013/11/blog-post_29.html

كتب برمجية على موقع كتب:
http://www.kutub.info/library/author/محمد%٢٠حمدي%٢٠غانم

ديوان انتهاك حدود اللحظة:
http://www.mediafire.com/file/c5ctl13srqcvniy/ViolationOfMomentLimits.pdf

ديوان دلال الورد:
http://www.mediafire.com/?n1qte7j9hdv1l98

ديوان فنجان وجع:
http://www.mediafire.com/download/gzivkgedtvx2e4j

ديوان امرأة تسكن في زحل:
http://www.mediafire.com/download/o0lu67bfatdpqm7

ديوان كون بطعم براءتي
http://mhmdhmdy.blogspot.com.eg/2017/01/blog-post_5.html

١ - بـــدأ يهتـــمُّ بـــي

تأمّلتُ صورتي في المرآة، والنّومُ ما زالَ يتعلّقُ بأهْدابي.
وهي تأمّلتْني من بينِ إسبالةِ رموشها بتراخٍ، وابتسامةٌ حالمةٌ تُزيّنُ شفتيها!
هي أيْضًا سعيدةٌ مثلي..
ذلك الإحْساسُ اللّذيذُ في أعْماقي تسرّبَ إلى سطْحِ المرآة، وصـــبغَ كلَّ شيءٍ بلونِ الزهورِ، ورقْصِ الفراشاتِ، وترنيمِ الغُدْران.

*****

بالأمسِ أحْسسْتُ في صوتِه دفئًا مَسّني.
نظراتُه أيضا لمْ تكنْ عاديّة.. كانت تشْملُني كلّي في حنانٍ رقيـــقٍ وأناقةٍ رائعة.
أحْسسْتُ أنّه يريدُ أنْ يمْتصَّني بعينيه، ليُخبّئَني تحتَ رموشِه عـــن كلِّ البشر، ويُرِيَني الممالكَ المسحورةَ الّتي أقامَها لي فـــي قلبِـــه، ويحكيَ لي كلَّ الأساطيرِ البرّاقةِ الّتي جمعَها عنّي.
كلُّ كلماتِه كانت تؤكّدُ ذلك.. كلُّ حركاتِه.. كلُّ سَكَناتِه.
إنّها أجملُ ليلةِ رأسِ سنةٍ عِشْتُها في حياتي.
لا أكادُ أصدّق.

*****

لا لا.. تلك اللحظاتُ أجلُّ من أن أدوّنَ عنها خواطري فحسْـــب.. يجبُ أنْ أكتبَ كلَّ ما مرَّ بي لحظةً بلحظة، حتّى لا تسقطَ إحـــدى جواهرِها سَهْوًا في غياهبِ ذاكرتي.. (أَجْزمُ أنَّ هذا مستحيل!).

*****

في آخرِ نهارٍ للعامِ الفائت، كُنْتُ أجْلسُ و(رانيا) على بعضِ درجاتِ مدخلِ كلّيّةِ (الإعلام)، نقضي الفترةَ بينَ المُحاضَرتينِ الأولى والثانيةِ في ثرثرةٍ متّصلة، ونستْمتعُ بالشمسِ الدافئة، ومشهدِ الطلبةِ والطالباتِ وما يمكنُ أن نتندّرَ به عليهم.

نتغامزُ عندما يمرُّ طالبٌ وطالبةٌ ذابتْ يداهُما في حُبّ، وهما يَسيرانِ لا يَشْعرانِ بالدنيا من حولِهما.

نتضاحكُ من منظرِ الفتياتِ المُتنقّبات، اللاتي لا يظْهرُ من أرديتِهنّ السودِ شيءٌ إلا عيونُهنّ، وهنّ يَسِرْنَ تجاهَ كلّيّةِ القرونِ السّحيقة: (دارِ علوم اللغة العربية)، أو ــ كما يُسمّونَها اختصارا ــ كليّةِ (دار العلوم) ــ القريبةِ من كلّيتِنا، والتي تُمثّلُ لثُلّتِنا موضوعَ تندُّرٍ كبير، خاصّةً أنّ غالبيّةَ طالباتِها يُصرِرْنَ على أنْظمةٍ عجيبةٍ من الأزياء، لا تكْشفُ إلا عن وجوهِهنّ وأيديهنّ، ما بينَ لابسةِ نقابٍ، ولابسةِ خمارٍ، وما دونَه.

وهو شيءٌ ليس عجيبًا على كلّيّةٍ لا تُدرّسُ إلا النّصوصَ السحيقةَ من الأدب، وأغلبُ طالباتِها من الفلاحاتِ اللاتي نتراهنُ دَوما أنّهنّ لم يسْمعْنَ إطلاقًا عن شيءٍ اسمُه (الموضةُ) أو الأناقةُ أو خلافِه[1].

في مثْلِ هذا وفي غيرِه كنا (نتناقش)، حينما لكزتْني (رانيا) في انفعالٍ وهي تهمسُ في أذني:

- (سماح) الْحقي: لقد جاءَ (إياد).. هو ذا يَركنُ سيارتَه بجوارِ سورِ الجامعة.. آه.. يا لها مِن سيّارة!

اشْتعلتْ نبضاتُ قلبي، والْتفتُّ كالبرقِ إلى حيثُ أشارَتْ، فرأيتُـــه يغادرُ سيّارتَه في منتهى أناقتِه ورشاقتِه، وابتسامتِه الّتي لا تُفـــارقُ شفتيه، فأحْسَسْتُ بنيرانٍ مُتوهّجةٍ تَرتعُ في وجْنتيّ، وهمسْتُ تقريبًا بلا صوتْ:

- (إياد)!

همسَتْ (رانيا) بصوتٍ ضاحك:

- (سماح) تماسكي أرجوك.. لا تُصيبَنّكِ هذه البلادةُ كلَّما وقعَ بصرُكِ عليه!

- إنّه قادمٌ نحوَنا.

- بالتأكيد.. وهو يفعلُ هذا كلَّ يومٍ تقريبًا!

- (رانيا).. هل شكْلي على ما يُرام؟.. هل أبدو مقبولة؟

- بل تبدينَ ساحرة.. رغمَ أنّي مللْتُ هذا السّؤال!.. [ثمّ همسَتْ] احترسي.. لقد اقتربَ كثيرًا.

رَضَبْتُ رَوَالي[2] في ارتباك، ولمْ أجْرؤْ على الالتفـــات، وقلبـــي يزعقُ طالبًا الرّحمةَ من عنْفِ نبضاتِه.

ورنَّ صوتُه الرّخيمُ في أذني وقلبي ورُوحي ودنيايَ، وهو يُحيّينا:

- هاي.. كيف أصْبحْتُما؟.. أين باقي أفرادِ الثُّلَّة؟

اخْتلسْتُ نظْرةً فوجدْتُه يترصّدُني، فهَربْتُ منه ســـريعًا، و(رانيـــا) تُجيبُه:

- (سوزي) لم تَحْضُرْ، و(رشيد) و(صفاء) و(فكري) في زيـــارةٍ لأصْدقائِنا في كلّيّةِ التجارة، و(أحلام) مشْـــغولةٌ بنقـــلِ بعْـــضِ

المحاضرات.. [و ضحكَتْ بسُخْرية] أمّا (كريم)، فلا بدَّ أنّـــه يقرأُ كتابًا هنا أو هناك.

- (كريم) هذا أغْربُ شخْصٍ في ثُلَّتِنا.. أحْيانًا أشْعرُ أنّه يحْتقرُنا، ويظنُّ نَفْسَه ــ ببعضِ التّفاهاتِ التي يقْرؤها ــ أذكى منّا.. كم أتعجّبُ: لماذا ينْضمُّ إلينا إذا كان يَزْدرينا؟

- رُبّما يُسْعدُه أنْ يَجدَ مَنْ يَسْتطيعُ ازدراءَه.. أَه.. لماذا لمْ تجْلسْ إلى الآن؟

- هذا إذا سَمَحَتِ الآنسةُ (سماح).

- عجبًا!.. لماذا هذه الرّسْميّاتُ العجيبة: (سَمَحَتْ).. (الآنسة)؟.. منذُ متى ظهرتْ هذه الفواصل؟

- [هزّ كتفيْه]: حقيقةً أُحسُّ منذُ فترةٍ أنَّ الـــ.. الآنســـةَ (ســـماح) تشْعُرُ بالتّضايُقِ في وجودي.

قُلْتُ باسْتنكار:

- أنا؟

- هذا ما أشْعرُ به، فأنتِ تَتَحَرَّدينَ بنفْسِكِ عن النّقاشِ حينما آتي: تكتفينَ بالصّمْتِ وتَشْردينَ بعيدا.. هل دَمِي ثقيــلٌ إلـــى هـــذه الدّرجة؟

- على العكْسِ تمامًا.. حديثُكَ شيِّقٌ جدّا ولكنْ...

- [وهو ينْظرُ في عينيَّ مُباشرةً]: ولكنْ ماذا؟

سَحرَتْني نظْرتُه، فتوقّفَ عقلي كلّيّةً عن التفكير، وبلا إرادةٍ انْزلقْتُ في عينيه، واثقةً أنّه قد قرأ على ملامحي كلَّ ما في قلبي تجاهَه.

- [مُبْتسمًا]: لكنْ ماذا؟

وأزاح يدي من يدِ (رانيا)، وأشار لها لِتُفْسحَ قليلا، فجلسَ بينَنا، وما زالت يدي في يدِه.

- علي كُلٍّ سأتأكّدُ من الأمرِ بطريقتي الخاصّة.. ما رأيُـكِ يـا (سماح) أن أصْطحبَكِ و(رانيا) لقضاءِ سهرةِ الليلةِ في مكـانٍ تختاران؟.. أمْ أنَّ لديكما خُططَكما الخاصّةَ لرأسِ هذه السّنة؟

قالت (رانيا) بسرعة:

- أنا عنْ نفسي خاليةٌ بعدُ من أيِّ ارتباط.

- جميل.. [وضغطَ كفّي في يدِه] وأنْت؟

ارتعدْتُ مع ضغْطتِه، وانْتفضْتُ قائلةً:

- أنا؟.. أنا... أنا أيْضًا لستُ مُرتبطة.

- هل يعْني هذا القبول؟

قَويتُ لأسْحبَ كفّي من كفّه أخيرًا، ووجدْتُني أُحيطُها بأصابعِ يدي الأخْرى، كأنّما أخْشى أن تضيعَ حرارةُ أصـابعِه منهـا سُـدى، وغمْغمْت:

- إن شاءَ الله [3].

- رائع.. هذه فرصةٌ طيّبةٌ لكي أُعرّفَكما بأخي (شادي) وأُخْتي (وفاء).. أينَ تُفضّلانِ قضاءَ سهْرَتَيْكما؟

قالتْ (رانيا) بسرعة:

- سنترُكُ لكَ اخْتيارَ المكانِ الذي تشاء.

سألني باهتمام:

- هل يُوافقُكِ هذا؟

أومأتُ برأسي في صمتٍ، وأنا أنظرُ في عينيه دونَ أن أُحاولَ إخفاءَ خردلةِ سعادةٍ واحدةً عن وجْهي.

*****

هل الحُبُّ استكانة؟

استكانةٌ أمْ سكينة؟

قاربٌ من ورقٍ مُفضَّضٍ لا يَسْأَلُ التّيارَ عن اتّجاهِه، أم حُلْمٌ بلا نهاية، والحُلْمُ وقْتُه النّوم، والنّائمُ في ملكوتٍ آخر، تتحكّمُ فيه قوانينُ أُخَر؟

ماذا فعلَ بي هذا الفتى؟.. كيف أكونُ أمامَه هكذا بلا حولٍ ولا قوّة؟

لا يَهمُّني.. أليستْ مُتْعةُ الدنيا كلِّها، أنْ تكوني في حمايةِ شخْصٍ تثقينَ به، بجوارِه تخلعينَ عنكِ الدنيا: همومَها وحَذَرَها وشكوكَها؟

أن تجدي مَن يحْملُ عنكِ عناءَك، ويمْنَحُكِ البهجةَ والتحليق؟

لي هو (إياد)، في حَضْرتِه أعْجزُ عنْ مُصانعةِ مَنْ حولي الكلامَ والمَرَح.. هو موجودٌ: إذن يكفي.. إذن فما معنى العقلِ، الكلامِ، المرحِ الزائف، التفاهات؟

فقط العينُ والأُذنُ والقلب، وكلُّ الإحْساسِ مُسَخَّرٌ للتفاعلِ مع ما تعيشُه.

لماذا أشغلُ ذِهني؟.. أحبُّه وهذا يكفيني.

*****

كنتُ سعيدة.. سعيدةً كأنّي تزوّجْتُه!

إنها أوّلُ مرّةٍ يهتمُّ بي فيها بمثلِ هذا الشّكل.. هل أخيــرًا لاحــظَ اهْتمامي به؟

اهتمامي؟.. (يَعْ)!.. ما أسْخفَه مِنْ لفظ!

الاهتمامُ مصطلحٌ هزيلٌ، مُصابٌ بأنيميا المَعاني، بجوارِ شــعوري به.

أنا أعشقُه، أتمنّاه، أعيشُه.. إنّني...

طردتْني (رانيا) من جنّةِ أفكاري، حينما قالتْ في مَكر:

- هاه .. ماذا بعْدُ يا (سماح) (هانم)؟.. لي نصْفُ ساعةٍ أنتظرُ منكِ كلامًا، وأنتِ تكتفينَ بالصّمْتِ والشرودِ والبسْمةِ الحالمةِ هؤلاء.. هل ضيَّعْتِ لي مُحاضرتي ــ ونحنُ على شفا حُفرةٍ من الامتحانات ــ لأجلِ أنْ تربطيني هكذا بجوارِكِ بلا فائدة؟

انْتبهْتُ إلى أنّنا نجلسُ معًا، فوقَ أحدِ المُسطّحاتِ الخضــراءِ فــي حرمِ الجامعة، ونظرتُ لأجدَ نظرةً في عينيها مكّــارة، فابْتســمْتُ وسألْتُها:

- لماذا تنظرينَ إليَّ هكذا؟.. هه؟.. [وتنهدتُ بنشوة] إيه يا (رانيا)!.. لقد اهتمَّ بي أخيرًا.. أخيرًا نجحْتُ في اسْتخْلاصِه مِن مُسْتنقعِ (صفاء) اللَّزج.

- [بحذر]: أنا أرى هذا استنتاجًا سابقًا لأوانه.

- [بهُيام]: ولكنّه أمْسكَ راحتي في راحتِه.. ألَمْ تلاحظي ذلك؟.. ألَمْ تلاحظي نظراتِ عينيه وطريقةَ كلامِه؟.. كان مُخْتَلفًا هذه المرّةَ بالتأكيد.

- وهو ما يُرْبكُني!.. هذا ما كنّا نبْغي ولكنْ!.. المجموعةُ كلُّها لاحظَتِ اهتمامَه الجمَّ بـــ (صفاء) وانسجامَهما معا.. ما سرُّ هذا التحوّلِ المفاجئِ إذن؟.. لم نسمعْ حتّى عنْ قطيعةٍ بينَهما أو ما شابه!

- [في اسْترخاء]: هذا ما يبْعثُ على الطمأنينة.. على الأقلِّ نثقُ أنّه لا يستخدمُني كوسيلةٍ لإذكاءِ غيْرَتِها.. لا بدَّ أنّه ملَّ من جمالِها المُصْطنع.. أنتِ تعرفينَ كيف تُلطِّخُ وجْهَها بالمساحيقِ والأصْباغ، ناهيكِ عنْ ملابسِها القصيرةِ والضيّقةِ واللاصقة، وطريقتِها السّخيفةِ في الكلام، وضحكاتِها الخليعةِ و...

- [ضاحكةً]: مهلا مهلا.. أنْتِ تُبالغينَ في إهانةِ (صفاء)، بدرجةٍ تدلُّ على شدّةِ غيْرتِكِ منها.

- [عقدْتُ حاجبيَّ في غضب]: أنا لا أُبالغ.. هذه هي الحقيقة.

- الحقيقة؟!!.. تدّعينَ أنّها غيرُ جميلة، وأنّ طريقةَ لبسِها وزينَتَها هما فقط سرُّ جاذبيّتِها، وتقولينَ إنّكِ لا تُبالغين؟.. آهٍ منكِ يا (سماح)!

- [في حدّة]: جميلةٌ أو غيرُ جميلة.. ماذا يعْنيني من أمرِها؟.. أرجوكِ لا تُضيّعي نشوةَ اللّحظاتِ من وجداني، بكلامٍ غيرِ ذي جدوى.

- حسنًا حسنا.. لا داعي لكلِّ هذا العُنْف.. دعينا منها الآن.. [وأضافت بعمق] ولكنْ كوني حَذِرةً أيْ (سماح).. هذا فقط ما أنصحُكِ به.

*****

قُلْتُ لـــ (رانيا) قبل أن نَفْتَرِق:

- سأنْتظِرُكِ في السّادسة.. لا تتأخّري.

قالَتْ بتعجّبٍ وارتباك:

- ولماذا هذا التّبكير؟.. ألنْ يأتيَ لأخذنا في التّاسعة؟

- [بمكْرٍ]: ربّما لأنّي أعملُ على إرضائكِ!

- [بابتسامة خَجْلَى]: ماذا... تقصدينَ بالضّبط؟

- ها ها.. أقْصدُ (رفيق) بالطّبع.. أتُنْكرينَ أنّكِ تشْتاقينَ لرُؤْيته؟!

لمْ تُحرِْ جوابًا، وهي تَشْخَصُ في نَظْرةٍ حالمة، فقلْتُ أُداعبُها:

- لا بأس.. إذا كان وجودُه يُربكُكِ، فسأطلبُ منه مغادرةَ المنزلِ قبل مجيئكِ.

- [أنغضَتْ رَأْسَها وضيّقتْ عينيها]: أيّتُها الشّريرة!.. أهكذا تَتَّخذينَ من أقْربِ صديقاتكِ مادّةً للسّخريةِ والتّندُّر؟.. أهذا جزائي أنْ بُحْتُ لكِ بسرّي؟

- [في أسفٍ مُصطَنع]: يا خَسارَةً!.. لمْ يَعُدْ سرّا!

اتّسعَتْ عيناها، وخشعَتْ أنفاسُها، وسألتْني بتهيُّب:

- ماذا تَعْ.. تعنين؟

- [بلا مبالاة، وأنا أهزُّ كتفيّ]: للأسف: لقد انفلتَ عيارُ لساني، وأصابَ أذنَيْ أخي (رفيق) مُباشرةً.

أَطلَقَتْ صيحةً خافتة، واحمرّ وجهُها احمرارًا، وضربَتْني في كتفي ضربةً خفيفة، وهي تهتف:

- فَعلْتِها؟!.. هل فَعلْتِها يا (سماح)؟!.. ألمْ تعديني بالكتمانِ حتّى اللحظةِ المُناسبة؟

- سلَّمْتِ القطَّ مِفتاحَ القلبِ الغافل!.. [وعلّقتُ حقيبتي على كتفي] المُهمّ: لا تَنْسَيْ مِيعادَنا.. السّادسةَ بالضّبط.. لا بدَّ أنْ آخذَ رأيَكِ في زينتي وفستاني الجديد.. [وفي رنّةِ إصرار] سأُبهرُه الليلةَ إبهارا.

- [وما زالتْ مُرتبكة]: كُنْتِ تتحدّثينَ عن وسائلِ (صفاء) في الإبهارِ منذُ لحظاتٍ بطريقةٍ مُختلفة!

- أه.. فيما بعدُ فيما بعد.. سأفْرَغُ لسَفْسَطَتِكِ بالتأكيدِ يومًا ما.

وأسْرعْتُ أبْتعد، فَهَتَفَتْ في لهفةٍ يُعرقلُها شيءٌ من الخجلِ والتّردُّد:

- (سماح): إلى أين؟.. لمْ تُخبريني ماذا حدثَ بعدَ أنْ أخْبرْتِه؟

- [وأنا أُطلقُ ضحكةً عابثة]: سأحكي لكِ إذا جئْتِ في السّادسةِ بالضبط.. حاولي ألا تتأخّري، فأخي (رفيق) سينْتظرُكْ.

لمحْتُ وجْهَها (مَخطوفًا)، فأردفْتُ ضحكةً أخرى، وابتعدْتُ وأنا أفكّرُ فيما أنا مُقدمةٌ عليه.

---

[1] كلّ رأي بهذه الرواية خاصّ بقائلِه ولا يشترطُ أن أوافق عليه.. وعلى كلّ أن يتعب قليلا قبل أن يقتنع بأي رأي.. هذا تحذيرٌ سريع من اعتناق الأفكار الجاهزة بلا وعي!

[2] رَضَبَ رَوَالَه = ازدرد لُعابَه: ابْتلعَ ريقَه.

[3] صارت التعبيرات التي تحوي لفظ الجلالة مفرّغة من معانيها عند أكثرِ الناس، كأنّها مجرّد عباراتٍ اعتياديّة تُقالُ بَدَدا، فالرّاقصة تنْسبُ نجاحها إلى [توفيقِ اللّه]، والممثّلة [تحمدُ الله]

على تسديد خُطاها في فيلمها الفاجر الأخير، واللّصّ يدعو الله أن [يسْترَها معه]!.. إلخ.. بل إن كتـــاب الأغـــاني صـــاروا يفرطون في ذكر لفظ الجلالة في أغانيهم، التي ترقص عليها الفاجرات في تصوير الفيديو!

٢ ــ الأحمقان

عُدْتُ إلى المنزلِ ولمْ أحطَّ إلى الأرضِ بعد.

كلّمني برقّة.. سيصْطحبُني في سهرة.. هذا الوسيمُ الـــذي تَحْفـــى فتياتُ الجامعةِ قاطبةً كي يَحْظَيْنَ بنظرةٍ عابرةٍ منه.

أعترفُ أنّي في البدايةِ كنتُ أحاولُ جذبَ انْتباهِه، حتّى أُثْبتَ لنفْسي وللجميعِ أنّي أجْدرُ من (صفاء) به: أجملُ وأكثرُ جاذبيّةً وذكاءً!

الغَيْرة؟.. أعترف!

ولكنَّ التّبدُّلَ الذي اعتراني كانَ أكْبرَ دليلٍ على صدقِ مشاعري: خفقاتُ قلبي.. متاهةُ مشاعري.. حينما أراهُ لا أقْوى على الحركة، ولا على الكلام، ولا على التّظاهُر!

معه ــ لأوّلِ مرّةٍ في عُمْري كُلِّه ــ عَرَفْتُ كيف تخجلُ الفتـــاة.. كيف يحمرُّ خدّاها، وكيف لا تريدُ من الدنيا سوى وجودِه حَولَها.

آه كم أتمنّى أنْ يكونَ لي.. أنْ أكونَ له.. أنْ يمْتلِكَني، ويُفْرِدَ لي كلَّ أرفف قلبِه وحياتِه.

يا كَرارِ كُرِّيه، ويا هَمْرَةُ اهْمِريه، إن أقْبَـــلَ فَسُـــرِّيه، وإن أدْبَـــرَ فَضُرِّيه[1].

لا.. لا تضرّيه، لأنّني أحيا فيه.

*****

وجدْتُ (كريم) بالمنزل.. دعاه (رفيق) للغداءِ معنا.

قرّرْتُ أن أصافحَه في عُجالة، وأعتذرَ بإرهاقي لأَخْلُدَ إلى نومي.

تحرّكْتُ تجاهَ غرفةِ (رفيق)، وأنا أحلمُ باللّحظةِ التي سأسْتلقي فيها في فِراشي، لأغوصَ في بحرِ أحْلامي، أُنقِّبُ بينَ أصْدافِ خيالاتي، عنْ لآلئِ أوقاتٍ سعيدة، عشْناها أنا و(إياد) معا، أو سنعيشُها معا، أو حتّى لا يُمْكنُ وجودُها على أرضِ الواقع.

حتَّى لقد طرَقْتُ البابَ شاردةً، ليُنبّهني صوتُ (رفيق) يأذنُ لي بالدّخول، ففعلتُ مُتمْتمة:

- مساءُ الخيْر.. مرحبا يا (كريم).

اسْترخى (رفيق) مُلقيًا ظهرَه على الفِراش، وهو يُتمتمُ في ضجرٍ تمثيليّ:

- آه.. حضرَ هادمُ اللذاتِ ومُفرّقُ الجماعات!

أمّا (كريم)، فقد نهضَ لاسْتقبالي.

لاحظْتُ أنه رصدني بنظرةٍ واحدة سريعة: (البنطلونَ الجينزَ) الأسود، بحزامِه الفضّيِّ العريض، والقميصَ الأبيضَ قصيرَ الأكمامِ الذي حشوتُه به، والسلسلةَ الذّهبيةَ حولَ نحري، وشَعْري المُسْترسلَ وراءَ ظهري، تَنْسدلُ منه خُصْلتانِ صغيرتانِ على جانبَيْ جبيني.

رصدَ كلَّ ذلكَ في ثانيةٍ واحدة، وبنظْرةٍ جامدةٍ لا تحْملُ الإعجابَ الذي تعودّتُ أن يُضيءَ عيونَ كلِّ مَنْ يَراني، قبلَ أنْ يقول:

- مرحبًا يا (سماح).. لماذا لمْ تحْضري المحاضرةَ الأخيرةَ اليوم؟
- [بصوتٍ يُبْدي الإرهاق]: آه.. لمْ أقْوَ في الواقعِ يا (كريم).. ثمّ البركةُ فيكَ وفي نقلِكَ الجيّدِ للمحاضرات.
- بالطبع يُسْعدُني أنْ أُسديَ إليكِ هذه الخدْمة، فأنتِ لا تنقلينَ أيَّ محاضرة، حتّى وإنْ حضَرْتِها!

تمْتمْتُ بعبارةٍ ما، قبلَ أنْ أقولَ مُغيِّرةً مجْرى الحديث:

- كان بوُدِّي أنْ أمْكثَ معكَ فتْرةً أطولَ يا (كريم)، ولكنّي مُرهقةٌ وسأخْلُدُ إلى النّومِ الآن...

قفز (رفيق) من فِراشِه إلى الأرضِ واقفًا مُباشرةً وهو يَهتف:

- إلى أين؟.. أدخولُ حُجْرتي كالخروجِ منها؟.. وقّعي هنا بالموافقةِ أوّلا.
- أوافقُ على ماذا؟

قال بطريقةِ قائدٍ عسْكريٍّ، وأماراتُ الصرامةِ على وجْهِه، وبصوتٍ فخيم:

– قرارٌ عسكريٌ لنهايةِ هذا العام.. أصدرَ الصديقُ العامُّ (كريم شاكر) مرسومًا مَلَكيًّا يَقْضي باصْطحابِنا في رحْلةٍ نيليّةٍ هادئة.. وعليه، فقد صدرتْ إليكِ الأوامرُ المُباشرة، بالاسْتعدادِ الجيّدِ من الآنِ لسهرةِ العُمْرِ هذه.. [وتنحْنحَ في تردّد] كما صَدَرَتِ الأوامرُ بضبْطِ وإحْضارِ الآنسةِ (رانيا عوض) لاصْطحابِنا في هذه الرّحْلة.

أخذتْني المُفاجأةُ لحظة، ثمّ ابْتسمْتُ ابتسامةً باهتة، وهزَزْتُ رأسي مُتمْتمة:

- هل تُصدّقانِ هذا؟.. أنا و(رانيا) مُرتبطتانِ بالفعلِ بسهرةٍ أخرى.. أليسَ حظًّا سيِّئًا؟

تمْتمَ (كريم) برجاء:

- ولكنْ يا (سماح) أ.. ألا يُمْكنُكِ الاعْتذارُ عن موعدِكِ هذا؟.. أعني....

- [باستنكار]: أعتذر؟!.. أعتذر؟!!.. أيُّ قولٍ هذا بالضبط؟

قال (رفيق) وهو يتأمّلُني مُنْدهشًا:

- عَجَبًا!.. كأنّه يطالبُكِ بالانتحار!

بل الانتحارُ أهون!.. ولكنْ.. ما ذنبُ (كريم) في شيءٍ لا يعْلمُه؟

شَعَرْتُ بشيءٍ من الحَرَج، فأسْرعْتُ أقولُ في شبْهِ اعْتذار:

- أعْني أنّ ذلكَ سيُسبّبُ حَرَجًا شديدًا لي ولـــ (رانيا).. لقد أعطينا وعدًا.

هيمنَ الصّمتُ علينا بُرهة، و(رفيق) يُداعبُ ذقْنَه بسبّابته، وخيبـــةُ الأملِ البادية على وجهِه تكادُ تدفعُني إلى الضّحك، فقُلْتُ في مكر:

- على فكْرة: ستأتي (رانيا) إلى هنا في السادسة، وسنقْضي ثلاثَ ساعاتٍ معا قبلَ الانْطلاقِ إلى أمسيتِنا.

تهلّلَتْ أساريرُه وهتفَ في سعادة:

- حقًّا؟.. احم.. أعْني مَرْحبًا بها بالتّأكيد.

ابتسمَ (كريم) بهدوء، وضحكْتُ أنا بمرحٍ، وقُلْتُ أستفزُّه:

- على العمومِ إنّها محاولةٌ جيّدةٌ لمداراةِ سرِّكَ المفْضوح.

- [مُتظاهرًا بالحَيْرة]: أيُّ سرّ؟
- السّرُّ الذي اكتشفْتُه أنا من فترةٍ طويلة.. وكذلكَ (رانيا).. أتظنُّ أنّها أيْضًا لمْ تلاحظ؟.. ألا تخجلُ من نفسكَ يا أستاذ؟.. لقد أدّى أسلوبُ المُراهقينَ الذي تتّبعُه معها كلّما أتَتْ إلى هنا، إلى إصرارِها على عدمِ زيارتي مرّةً أُخْرى.. وإلا أغْلظْتُ لها القَسَمَ، لَأُحَصّنَنَّها منكَ داخلَ حُجْرتي، ولَأَمْنَعَنَّكَ من محاولةِ رؤيتِها، لما قدِمَتِ اليومَ قطّ.

اربدَّ وجْهُ (رفيق) وغام، فكدْتُ أُطلِقُ ضحْكةً مُتشفّيَة، فكثيرًا ما أوقعَني في مقالبِه اللاذعةِ ودُعاباتِه القاسية، وها أنا ذي أردُّ له الصّاعَ أصْواعا.

(كريم) أيضًا بدا أنّه قد فهمَ لُعْبتي، إذ قالَ بنفسِ هدوئِه المعهود:

- أنتِ تُشدّدينَ الوَطْءَ على (رفيق) يا (سماح).. أنا مُسْتعدٌّ أنْ أشْهدَ أنّه في المرّاتِ التي ضمّتنا معًا، كان دَمْثًا في مُعاملتِه لـ (رانيا).. فقط في بعْضِ الأحيانِ يتصرّفُ ببعْضِ الطُّرُقِ الصّبيانيّة، التي لا تليقُ بشابٍّ ناضجٍ مثْلِه!

أفْلَتَتْ منّي ضحكةٌ قصيرة، فصاحَ (رفيق) في غيظ:

- هكذا؟.. تآمرتُما عليَّ إذن؟.. لا بأس.. [ورَضبَ لعابَه بتوتّر] ثمَّ ماذا في تصرّفاتي مع (رانيا)؟.. أعتقدُ أنّي تصرّفتُ دائمًا بطريقةٍ مُهذّبة.. نعم أُوليها بعضَ الاهتمامِ الزّائد ولكنْ... ولكنّي أبدًا لمْ أحاولْ مُضايقَتها.

قالَها وأطرقَ مُكتئبًا، فنظرْتُ له لحظة، وتبادلْتُ و(كـــريم) نظـــرةً باسمة، قبلَ أن ننفجرَ ضاحكَيْنِ في قوَّة، فنظرَ إلينـــا فـــي حـــزنٍ وتمتم:

- اسخرا من أحزاني كما تشاءان.. لسْتُ في تَرَفٍ نفسيٍّ لأُبادلَكما سُخريةً بسخرية.

قلْتُ في مَرَح:

- ألمْ أقُلْ إنّكَ أحْمقُ شخْصٍ بالوجود؟.. إنّها تذوبُ في أنفاسِ حُبِّكَ يا أعمى!

ضحك (كريم) قائلا:

- نظّارةُ الحبِّ عمياءُ كما تعرفين.

نقلَ (رفيق) بصرَه بينَنا مذهولا، وهو يُفهْفِه:

- تُحِبْ.. تُحبُّني؟ تُحبْ.. بُني؟.. حقًّا؟

ازددْنا ضحكًا على ضحك، فقالَ في شكٍّ منا مُريب:

- هل.. هذه مزحةٌ جديدةٌ من مزحاتِكما؟.. آه!.. كم أعرفُكما أيْ (سماح) وأيْ (كريم)!.. أرجوكُما.. هذا الأمرُ هامٌّ جدًّا لي.. أهمُّ شيءٍ في حياتي في الواقع.. احْذرا.. لنْ أسْمحَ لكما بالهَزْلِ في جدٍّ كهذا.. هل تفهمان؟

قُلْتُ ببساطة:

- واللهِ لقد قُلْنا ما لَحِظْناه.. أمّا إذا أردْتَ التّأكّدَ، فاسْألْها بنفسِكَ حينما تأتي!

- أسْ.. أَسْألُها؟

ضحِكْتُ، واكْتفى (كريم) بابْتسامةٍ وهو يتأمّلني في صمْت.

- هَهْ: هل ستتْركانني أستريح؟

هتف (رفيق) يستوقفُني:

- (سماح).. ماذا بشأنِ دعوتِنا لكِ؟

- تقصدُ لكما؟.. قلْتُ لكَ إنّنا مرتبطتان.

- [بحذر]: إذن لماذا لا تَصْحبانِنا معكما؟

- [بتهيُّب]: نَصْـــ.. ـــحبُكما؟

- نعم نعم.. تفينَ بوعْدِك، ولا تفْترقُ صُحْبتُنا.. ما رأيُك؟

ظهر التّردّدُ جليًّا على ملامحي، فقالَ (كريم):

- أرى أنّكَ بهذا تضعُها في موقفٍ مُحْرجٍ مع داعيها.. دَعْنا لا نُثْقلُ عليها هذه المرّةَ يا (رفيق).

قلتُ مُحْرَجةً:

- في الواقعِ ليسَ هناكَ أيُّ ثِقَلٍ في هذا لكـــ...

انْقضَّ (رفيق) يُقاطعُني:

- لا بأس.. نذهبُ معًا إذن.

قالَ (كريم)، ويبدو أنّه لاحظَ حَرَجي:

- أنا عنْ نفسي أتمنّى لكم سهرةً سعيدة.. أعْتقدُ أنّ وجودي سيُسبّبُ إحْراجًا ما.. إنَّ وجودَكَ مع شقيقتِكَ أمرٌ منطقيٌّ، أمّا أنا...

أسرعَ (رفيق) يهْتف:

- ماذا تقولُ يا (كريم)؟.. إنّكَ أكثرُ من أخٍ بالنسْبةِ لنا: صديقُ طفولة، وزميلُ دراسةٍ لـــ (سماح)، وزميلُ رياضةٍ لي.. لا.. لنْ...

- لا تأخذِ الأمْرَ بهذه الحساسية.. أنتَ تعرفُ أنّي لا أُحبُّ الصَّخَبَ والهَرَج.. دَعْنا نفْترقُ هذه المرّةَ يا (رفيق).

ونظرَ لي وهو يُردفُ في عُمْق:

- وأعدَكما أنّنا لنْ نفترقَ بعدَها.. أبدا.

*****

قضيتُ فترةَ نومٍ لذيذة، كلُّها في عالمِ (إياد)، وسْطَ عينه الواسعتينِ العميقتين، مُبْحرةً بقلبي الأبيض، وابْتساماتي تُحلّقُ حولَ أشْـــرعةِ سعادتي، وكلُّ ما أُدْركُه وأراه وأعيشُه هو: هو.

معًا، يدُه الدافئةُ الحنونُ تقبضُ على يدي، سعيدينَ، رُحْنا ننْطلقُ في مَرَحٍ بينَ مروجِ المتْعة، يرجوني أن ألامسَ كلَّ زهـــرةٍ بأنفاســـي لتتشبّعَ من رحيقي، ويسْتوقفُ كلَّ فراشةٍ جميلة ــ وكلُّها جميلة ــ ليُشْهدَها على مدى حُبِّه لي، وأمْنحُه أنا كلَّ دقّةٍ في قلْبـــي، وكـــلَّ مُتَّكئٍ في وجْداني.

*****

لمْ أُدْركْ قَطُّ مردودَ دُعاباتي السَّمجة، ومقدارَ فائدتِها الجمّة، كمـــا أدْركْتُ اليوم!

زقزقَ عُصفورُ جرسِ المنزلِ في السادسة، فهُرِعْتُ صَوْبَ الباب، فما إنْ ولَجْتُ إلى الممرِّ المُفْضي إليه، حتَّى شاهدْتُ (رفيق) يفتحُه بالفعل بكلِّ لهفةِ الدّنيا، لتظْهرَ على عَتَبَتِه (رانيا).

تجمَّدَا بمكانَيْهما، وقَرْعُ قلبيهما يَصمُّ أُذنيّ، وحرارةُ أنْفاسِهما تكـــادُ تُشْعلُ حريقًا في المكان.

لمْ أرَ وجْهَ (رفيق) الذي يوليني ظهرَه، ولكنّي اسْتطعْتُ تمييزَ ملامحِ (رانيا)، وسْطَ النيرانِ التي انْدلعَتْ في وَجْنَتَيْها، وتمكَّنْتُ أنْ ألمحَ التماعةَ عينِها لحظةً واحدة، قبلَ أنْ تهويا إلى الأرضِ خجلا، وتغوصا لأغوارٍ سحيقة.

قرّرْتُ أنْ أَقفَ ساكنةً كاتمةً أنفاسي، لأرْقُبَ المَشْهدَ باسْتمتاع، رغمَ أنّي لو فجّرتُ بينَهما قُنْبُلةً نوويّة، لما نجَحْتُ في انتزاعِ عيْنَيْ (رفيق) من ملامحِها، ولا إحساسِ (رانيا) من روعةِ قُرْبِه منها.

قرّرْتُ ثمّ أحْجمْت، خاصةً حينما طالَ وقوفُهما، حتَّى خَشيتُ أنْ يأتيَ (إياد) في التّاسعة، فلا يسْتطيعُ دخولَ الشّقةِ بسببِهما!

لهذا اقْتربْتُ مُصمّمةً على إنهاءِ الموقف.

و كانتْ مفاجأة!

الوغْدان!

كانا قد قالا كلَّ ما يريدانِ بعيونِهما، وفوجئْتُ بأنَّ أنامــلَ (رانيــا) نائمةٌ منذُ دهْرٍ بينَ أصابعِ (رفيق)، فَخفْتُ إنْ أنا انْتظــرْتُ ثانيــةً زائدة، أن يكونا قد أنهيا بعيونِهما تحديدَ موعدِ الزّفافِ دونَ علْــمِ والديّ!

لهذا أسرعْتُ أتنحْنحُ هاتفةً في ترحيب:

- أهْلا يا (رانيا).. تَفضّلي.

انْتفضا كأنّما هاجمَهما صوتي كطلقاتِ رَصاصٍ مُميتة، وخرجا من لحْظتِهما الجميلة، كأنّهما (آدمُ) و(حوّاءُ) حينَ خرجا مــن الجنّــة، فتلفّتا حَولَهما يبحثانِ عن (إبليسِهما)، حتَّى لقد خِلْتُ (رفيق) يريــدُ أنْ يخنُقَني خنقًا مِن فرطِ نِقْمتِه عليّ، ولكنَّ ملامحَه لمْ تخْــلُ مــنَ

ارتباكٍ وخجل، وملامحَها كانت هي عينَ الارتباكِ والخجل، سيّما حينما بحثَتْ عن أصابعِها، فوَجدَتْها ما تزالُ مُنْصهرةً فـــي كفّيـــه، فأسرعتْ تسحبُها، و(رفيق) يتمسّكُ بها في رجاء، كأنّها رُوحُه تلكَ التي تُنْتزعُ منه، وقالتْ:

- أ.. أ.. لقد.. لقد جئْتُ في.. موعدي.. أليسَ كذلك؟

*****

وطبعًا استأثرَ بها (رفيق) في شرفةِ المنزلِ، طيلةَ السّاعاتِ الثلاثِ التالية!

يا لي من بائسة!

قُلتُ أوفّقُ بينَ قلبين، فكان جزائي أن خسرْتُ صديقتي الوحيـــدة، في لحظاتٍ أنا فيها مسيسةُ الحاجةِ إليها!

بلى خسرتُها.. أوَتَحْسَبْنَ أنّ انتزاعَها من (رفيق) أمرٌ سهلٌ أو حتَّى ممكن؟

مستحيل!

أنا أتخيّلُ نفسي حينما أكونُ مع (إياد).. كلُّ الدنيا لا تعنيني لحظتَها في شيء.. حتَّى نفسي.. لو قتلوني وأنا أنظرُ في عينيه، فلن أنتبهَ قبلَ أنْ يزجرُني ملَكا الحسابِ في القبرِ صائحين:

- أنت.. كلُّ هذا شرود؟.. إنّكِ تُضيّعينَ وقتَنا.. هيّا لنقتصَّ منكِ لكلِّ جرائمِك!

*****

يكبُرُني أخي (رفيق) بحَوْلين كاملين، لكنْ يُؤسفُني أن أقـــولَ إنّـــه أحمق!

فبرغمِ أنّ هذه آخرُ سنواتِ دراستِه في كلّيّةِ (العلوم)، وبرغمِ أنّــه مِن هُواةِ لُعبةِ (التايكوندو)، يُواظبُ هو و(كريم) على تمريناتِها منذ كانا في المرحلةِ الثانويّة، ويُحــرزانِ النصــرَ فــي كثيــرٍ مــن المُسابقات، ويتقدَّمانِ في مركزيهما.. وبرغمِ أنّــه خفيــفُ الظــلِّ (كزجاجٍ نصفِ شفّاف!)، يُجيدُ الدُعابةَ حتَّى في أحْلــكِ لحظــاتِ الكآبة.

برغمِ ذَلَهَ كلِّه، إلا أنّه قليلُ الخبرةِ في الحبّ.

ما إن وقعَ بصرُه على (رانيا) لأوّلِ مرّة، في بدايــةِ هــذا العــامِ الدراسيّ، حتَّى هوى فيها حُبًّا على الفور، ولمْ ينْهضْ بعد!

نعم!.. له ثلاثةُ شهورٍ، كلّما رآها حملقَ فيها كــالمجْنونِ، دونَ أن ينْطقَ أو يَطْرِفَ له جَفْن، غائبَ الذّهنِ حتّى ليتسبَّب في كــوارثَ مُفْجعة، يتعثّرُ في الكراســي والمناضــد، ويــؤدّي إلــى إســقاطِ المزهريّاتِ الثّمينة، وإهراقِ أكوابِ العصائر، وإفســادِ المفــارشِ وملابسِ أيِّ تعيسِ حظٍّ بجانبِه!

أحمق!

رغمَ كلِّ لباقتِه في الحديث، لمْ ينجحْ في توجيهِ جملةٍ واحدةٍ مُفيــدةٍ لها، يستطيعُ مِنْ خلالِها أنْ يُجاملَها أو يُثيرَ ضحكَها أو أيَّ شيء.

إنّه حتَّى لم يطلبْ مساعدتي للتقريبِ بينَهما، باعتبــاري صــديقتَها المُقرّبة، بل حتَّى لم يَبُحْ لي بما تُثرثرُ به عيناه وأفعالُه، باعتباري أختَه!.. تَصوَّرْن!.. يظنُّ نفسَه كتوما!

(رانيا) أيضًا أكْثرُ منه حُمْقا، يُصيبُها الخَرَسُ في حضْرتِه، ولا تَقْوَى على اخْتلاسِ أكثرَ مِن نظرةٍ إليه، وكأنّ أعماقَها لا تحتملُ جُرعةً زائدةً من وسامتِه!

كانا كتائهينِ بالظلام، يتحسّسُ كلٌّ منهما طريقَه إلى الآخر، وظهراهما مُتلاصقان!

ارْتباكُه وخَجَلُها، وتَهيُّبُ كلٍّ منهما الآخر، وغيبوبةُ الحبِّ التي تغشاهما حينما يلتقيان، كلُّ ذلك جعلهما يعجزانِ عن اكتشافِ الحقيقةِ النّيّرةِ التي اكتشفَها كلُّ مَن رآهما معا ولو لمرّة: حقيقةِ أنَّ كلا منهما ذَوْبُ أَمانيِّ الآخر، ومُبتغى أملِه وغايةُ دُنياه.

العجيبُ أنَّ حالَهما تزدادُ سوءًا باطّراد، يكادانِ ينْتحرانِ شوقًا، بسببِ الحواجزِ التي أقاماها بنفْسيْهما دونَ كيدِ عازل: فَقلَّةُ تخاطبِهما أصْبحتْ فرضا، وتحفّظُهما قانونا، وتَحاشي النظراتِ إدمانا.. مما حداني إلى التدخّلِ الجراحيِّ العاجل.

أخذْتُ أُكثرُ مِن دعوةِ (رانيا) إلى منزِلِنا، وأصْطحبُ (رفيق) معي إلى كُلّيتي، وأدعوه للخروجِ معنا إلى النّزهِ والرّحلاتِ والسّينما، وفي كلِّ ذلكَ كنتُ أشقُّ قنواتٍ للحديثِ بينَهما، وأُجبرُهما على الاشتراكِ في النّقاش، ليعتادا أنْ يُواجهَ أحدُهما الآخر.

والحمدُ لله: أحرزْتُ تقدّمًا ملموسًا، فقد أصبحَتْ فتراتُ التقاءِ عيونِهما تتعدّى الثانيتين في بعضِ الأحايين، كما أصبح من المُعتادِ أن يُعقّبَ أحدُهما على الآخرِ بحرفٍ أو حرفين، على غِرار: (إمْ.. نعم.. بالطّبع)... وهكذا!

ثم لقد استدرجْتُ (رانيا) لتبوحَ لي بدخيلةِ نفسِها، ففعلَتْ وما كادتْ، لتؤكّدَ لي ما لمْ أكُنْ في حاجةٍ إلى تأكيدِه.

وأخيرًا قُمْتُ بتلك اللعبةِ التي أوهمْتُ فيها كلا منهما أنّ الآخرَ بات يعرفُ سرَّه.

لقد أرهقاني طويلا حقّا، ولكنِ الحمدُ لله: يبدو أنّي نجحْتُ أخيرا.

ولكن.. ماذا لو كانا في الشُّرفةِ صامتين، ينظرُ أحدُهما لأطرَافِ أصابعِه أو حذائِه، والآخرُ للمارّةِ في الشّارع، دونَ أن يُحيرَا حَرفًا أو نَبْسة؟

ساعَتَها سأُصابُ بالجنونِ حتما!.. أُراهنُ أنّه حتَّى لن ينْتبهَ لفُسْتانِها وتسْريحتِها وأناقتِها، التي لمْ أَرَها على آنقَ منها قبلَ اليوم.. فما إنْ ينْظرْ في عينيها حتَّى تبتلعَ قطّةُ الصمتِ لسانَه، ويُجْدبُ حلقُه عن أن يُنْبتَ غيرَه!

وهي سيُسْكرُها وجودُه أن تنْتبهَ لنفْسِها أو لمرورِ الوقْت!.. أخشى أن يُضيّعَ الأحمقانِ الفُرصة!

قُلتُ هذا ثمّ قرّتْ نفسي، فهما معًا بمفردِهما لأوّلِ مرّة، وشوقُ أحدِهما يكادُ يلتهمُ الآخر، فغمْغمْتُ في نفسي:

- هيه.. حتَّى لو صمتا أيضًا هذه المرّة، فستقولُ العيونُ والقلوبُ ما تعجزُ عنه ألسنُ الشّعراء.

*****

على فكرة:

أنا ثرثارةٌ، وأحبُّ تدوينَ كلِّ ما يقعُ في حياتي وفلسفته بالنسبةِ لي.

كما أردْتُ أن أُثبتَ شيئًا هامّا على نفسي.. هل لاحظْتُمُوه؟

إنّي أنا العبقريّةُ التي تُخطّطُ وتُدبّرُ، وتسخرُ من عجْــزِ (رفيــق) و(رانيا) عن التعبيرِ عن مشاعرِهما، لا أخْتلفُ كثيرًا عنهما.

ولعلَّكُنَّ تذْكُرْنَ مواقفي مع (إياد)!

يبدو أنّ بيتي أنا أيضًا من زجاج.. هل مع إحداكُنَّ طوبة؟

---

[1] كرارِ: اسم خرزة كانَ يُتعوّذُ بها في الجاهليّة، وكانت الكاهنــة تردّدُ تلكَ التعويذة بنصّها.. لقد نهى الرسولُ صلى الله عليه وســلّم عن التعوّذِ بالخرزِ والتمائم، وأمر باستخدام الأدعية والأذكار بدلا من ذلك.

٣- قواعدُ اللعبة

ألقيتُ نظرةً مُتوتّرةً على ساعةِ يدي: الثامنة.

لمساتٌ إضافيّةٌ وأنْتهي من زينتي تمامًا.

وقفْتُ أمامَ المرآةِ أستعرضُ نفسي:

ثوبُ سهرةٍ حريريٌّ ضيّق، حالكِ السّوادِ لحدِّ التّألّق، وشَعْري يسْترسلُ بحريّة، مُنْسدلا على كتفيَّ المكشوفين، مارًا خلفَ أُذنيّ، يُشَنِّفُهما قُرْطانِ ذهبيّانِ، يُنافسانِ بريقَ عينَيّ، اللتين كَحَّلْتُ رموشَهما الطويلَةَ مِن مِرْوَدِ الليل.

تأمّلتُ ذيّاك برويّة، ثم طليتُ شفتيَّ بالأحمرِ الخفيف، وابتعدْتُ عن المرآةِ خُطوتين، ودُرتُ حولَ نفسي أستعرضُ أناقتي من جميعِ الزّوايا، قبلَ أنْ أتنهّد:

- لا بأس.. لا محيصَ عن اسْتشارةِ (رانيا).

وبخطواتٍ سريعةٍ اتجهْتُ إلى الشُّرفة.

*****

وأنا التي ظننْتُه أحمقَ وظننْتُها بلهاء!

فوجئتُ في الشّرفةِ بـ (رانيا)، وقد أسْنَدَتْ رأسَها على صدرِ (رفيق)، وهو يهمسُ لها بكلماتٍ لمْ أتبيَّنْها!

وصعقني المشْهد، فوقفْتُ مُلجَّمةً أُكذّبُ عينيّ!

(رفيق)؟؟.. (رانيا)؟؟

لحُسْنِ الحظِّ أنَّ الشّرفةَ ذاتُ ستائرَ تحْجبُهـــا عـــن الأنظـــارِ، وإلا لكانت فضيحة!

تمالكْتُ نفسي وتنحْنحْتُ، فانْتفضا في ذُعر، وعادا يلتفتـــانِ إلـــى (إيليسهما) في غيظٍ وارتباك.

نظرْتُ لهما بمكرٍ قائلةً:

- مرحى مرحى!.. لمْ أتخيّلْ أن تتطوّرَ الأمورُ بينَكما إلى هذا الحدّ، وبهذه السّرعة!

لمْ تُحرِ (رانيا) جوابًا.. اخْرَنْبَقَتْ مُطرِقة تحتَ وطأةِ حَرَجِها.. وأنا أعرفُها جيّدًا: لمْ تُقدِمْ على شيءٍ من هذا قبلُ قـــطّ، ولا ريـــبَ أنَّ الذّئبَ أخي قد خدّرَها بكلماتِه المعسولة ــ ولا أدري من أينَ أتـــى بها ــ فغيّبَها عن وعيِها تمامًا!

أمّا (رفيق) فقد قالَ، ويحاولُ أن يبدوَ مَرِحًا:

- يا لكِ من.. ثقيلةِ الدم!.. أهكذا أفزعْتِنا؟

- وجبَ أن أفعل، لأكتشفَ ما غفلتُ عنه من شخصيّتِك... وشخْصيّتِها!

احمرَّ وجْهاهما أكثرَ وأكثر، حتَّى شممْتُ رائحةَ شياطٍ في المكان، ولمْ يَنْبسْ أحدُهما بِبِنْتِ شَفَة، فشعَرْتُ بالانتصارِ في أعماقي، وقلْتُ مُتماديةً في مداعباتي القاسية:

- ألا تَخْجلانِ مِنْ نفسَيْكما؟.. ألم يكُنْ من المُمْكنِ أن يكونَ القادمُ أبي أو أمّي؟.. إذن لَباتَتْ ليْلتُنا (هِبابًا) على رءوسِنا.. [مُقلّدةً لهجةَ أبي] هذا إذن ما ربّيتُكَ عليه!.. وهذه هي صديقةُ ابْنتي،

وأنـــا كالمغفّلِ أتـــركُ التعِسَتينِ تخْرجانِ معًا بلا رقابة، حتَّى تجْعلا رقبتي كالسّمسمة.. واللهِ سوف...

قفز (رفيق) يضعُ يدَه على فمي ليُسْكتَني، وهو يصـــيحُ بصـــوتٍ خافتٍ مُغْتاظ:

- صَه.. صَه أيّتُها الشّيطانة.

أفلتُّ منه وأنا أقولُ بمرح:

- سأذهبُ لأُخبرَ أمّي.. ماما.. ماما.

ووثبْتُ صوبَ الباب، فقفزَ (رفيق) يُمْسكُ بذراعي، قائلا برجاء:

- اسْمعي فقط يا (سماح).. ســـ.. سأشْرحُ لك.

- تشْرح؟.. تشرحُ ماذا يا أستاذ؟.. هَهْ؟

ولمْ أنتظر إجابتَه، بل اتّجهْتُ إلى (رانيا)، وقلتُ لها ببشاشة:

- هيّا أيّتها العابثةُ استعيدي قلبَكِ من بينِ قدميك.. هناكَ مرّةٌ أولى للسّماحِ لحُسْنِ حظِّك.

وحشدْتُ في صوتي جدّيّةً مُصطنعةً ممزوجةً بالغضب، وأنا أُشيرُ إلى (رفيق) قائلةً لها:

- ولكنْ في المرّةِ القادمة، حاذري من هذا الذئبِ ذي الكلماتِ المعسولة.. إيّاكِ أن تُنْصتي له لحظةً واحدة.. مفهوم؟

قالتْ بتلعْثُم، وهي تهْربُ من نظراتي بارتباك، ووجْهُهـــا يتلـــوّنُ بألوانٍ شتّى:

- كفى.. كفى يا (سماح) أرجوكِ.

ضحكْتُ في مرح، وابْتعدْتُ عنها خُطوة، ودُرْتُ حولَ نفسي فـــي رشاقة، وأنا أسألُهما فجأة:

- هَه: لمْ تقولا لي ما رأيُكما في أناقتي الليلة؟

انْتبها فقط في تلك اللحظةِ لما أنا عليه، فاتّسعتْ عينا (رفيق) في دهشةٍ خرافيّة، وصَعّدَتْ (رانيا) بصرَها فيَّ غيرَ مُصدِّقةٍ، فضحكْتُ لوقْعي عليهما هاتفة:

- رائعة؟.. أليسَ كذلك؟

غمْغمتْ (رانيا) في تهيّب:

- مستحيل.. هل.. هل ستخْرجينَ هكذا؟

وقال (رفيق) في عصبية:

- آهٍ لو رآكِ (كريم) هكذا!

صدمني جوابُهما، واستفزّني قولُ (رفيق) للغاية، فوضعْتُ كفّي على خصري متسائلةً بتحدٍّ غاضب:

- وماذا كان سيفعلُ (سي) (كريم) هذا بالضّبط؟

- كان.... سيقتُلُك!

زممْتُ شفتيَّ لحظةً في غضبٍ حانق، قبلَ أنْ أُدمدمَ بعصبيّة:

- على كلٍّ هذا موضوعٌ جانبيّ.. فأنا سأذهبُ إلى السّهرةِ هكذا بلا نقاش.

تمْتمتْ (رانيا) بتردّد:

- لم يَكُن هذا ليتّفقَ مع رأيِكِ عن (صفاء) ضُحىً!

- يتّفقُ أو لا يتّفق.. إنّنا في اللحظةِ الحاضرة.. ثمّ ماذا في ملابسي؟.. أنا هكذا أعدُّ من أكثرِ الفتياتِ احتشامًا، مقارنةً بما سنراه الليلةَ من أزياء.

فهفهَ (رفيق) في اعتراضٍ مُتخاذل:

- ولكنْ.. إنّنا...

- إنكما ماذا؟.. لا تَقُلْ إنّ هذه المناقشةَ دافعُها الرّئيسيُّ هو الأخلاق!.. هأ!.. و... أنتما بالطّبعِ أكثرُ مَنْ يَفْهمُ في الأخلاق!

اخرنبقا، وقد جثمَتْ عبارتي على صدريهما كالطّود، فتَهادَأْتُ قليلا، وقلْتُ ماطّةً شفتيّ:

- أمّا بالنسبةِ للشكليّاتِ الاجتماعيّة: أفلا تعتقدانِ أنّي هكذا في غايةِ الأناقة؟.. ثمّ إنّ أبي كانَ معي وأنا أختارُ هذا الفستان، ووافقني فيه شريطةَ أن يكونَ للمناسباتِ الخاصّة.. فهل هناك أخصُّ من ليلةِ رأسِ السنة؟

وتنهّدْتُ وهمسْتُ لنفسي:

- المهمُّ أنْ أروقَ له.. هووه.

قلتُها وشردْتُ في أحْلامي.. أمّا هما فكانا صامتين، في مزيجٍ من الاعتراضِ العاجز، وتأنيبِ الضّمير بسببِ ما كانَ بينَهما.

*****

أخيرًا.. أخيرًا جاء.

أطلقَ نفيرَ سيّارتِه وما احتاج، فقد قضيتُ السّاعةَ الأخيرةَ من الوقْتِ في انتظارِه.. في الشّرفة.

وفي لهفةٍ أشرْتُ له هاتفةً:

- ثانيةً واحدةً يا (إياد).

وانطلقْتُ إلى (رفيق) و(رانيا) في الصّالون، فهتفْتُ وأنا أكادُ أخْتطفُهما من مقعديْهما:

- هيّا هيّا.. لقد جاءَ (إياد).

نهضتْ (رانيا) بتثاقل، في حينِ غامتْ عينا (رفيق) بنظرةٍ حزينة، وقال:

- مِنَ الأفضلِ أنْ تذْهبا أنْتُما.. أشعرُ بشيءٍ مِنَ الإجهادِ غيرِ يسير.

نقلْتُ بصري بيْنَهما في حَيْرَةٍ وتمْتمْت:

- ماذا بكما؟.. ما الذي حدثَ بينَكما بالضّبط؟

ترقْرقتِ الدّموعُ في عينَيْ (رانيا)، فأشاحتْ ببصرِها بعيدًا، وقــالَ هو:

- لا شيءَ يا (سماح).. أرجوكِ لا تُطيلي النقاش.. رُفِعَتْ أقلامُ القراراتِ وجفّتْ صُحُفُها.

اعتراني المزيدُ منَ التساؤلات، ولكنّ قلبي أبَى إلا أن أتذكرَ (إياد)، فجذبْــتُ (رانيا) من يدِها هاتفةً:

- لا بأس.. هيّا بنا إذن.

وانْطلقْنا إلى الخارج، وأنا ألمحُ عينيْ (رفيق) مُلتصــقتينِ بوجْــهِ (رانيا)، كأنّي أقتطعُها منهما.

وأزادَ ذلكَ مِن حَيْرَتي، فسألْتُ (رانيا) ونحنُ نهبطُ السُّلّم:

- ماذا حدثَ يا (رانيا)؟.. لماذا تنحّى (رفيق) عنّا؟

سالتْ دُموعُها وهي تقولُ بمرارة:

- إنّنا نادمانِ يا (سماح).. ليسَ من أخلاقِنا أنْ نفعلَ ما فعلنا.

- [بتعجّب]: وماذا فعلْتُما؟.. لقد ضمّكِ إلى صدرِه فقط!.. لا أرى الأمرَ بشعًا كما تتصوّرانِه!

- [في حُزن]: أخافُ أن يحتقرَني يا (سماح).. ماذا سيظنُّ بي حينما أستسلمُ له من أوّلِ كلمةٍ رومانسيّةٍ يقولُها؟.. هو أيضًا متضايقٌ وحزين.. يقولُ إنّه استسلمَ لعواطفِه الجيّاشة، ولمْ يُحافظْ عليَّ كما ينبغي.. إنّه لا يريدُ أنْ نرتكبَ شيئًا يسمحُ لضمائرِنا أنْ تؤنّبنَا عليه.. يريدُ أن يكونَ حبُّنا عفيفًا، لا نخجلُ معَه من أنفسِنا ولا من النّاس، ولا نأثمُ به أمامَ الله.. آاه.. كيفَ سمحْنا لأنفسِنا أن نفعلَ ما فعلْنا؟

جذبْتُها من يدِها لأُوقفَها في مُنتصفِ السُّلَّم، وضغطْتُ راحتَها برفْقٍ وأنا أقول:

- هوّني على نفسِكِ يا (رانيا).. أنا أعرفُكِ جيّدًا، وأعرفُ أنَّ ما حدثَ ليسَ من أخلاقِك.. وأنا أثقُ أنّكِ لا تعودينَ إلى مثْلِها أبدا.
- [من بينِ دموعِها]: وهل يعرفُ هو نفسَ ما تعرفينَ ويثقُ بما تثقين؟.. لقد أخبرَني أنّه سيُضطرُّ إلى التّراجُعِ والابتعادِ فترةً حتَّى يُروّضَ مشاعرَه، ويثقَ أنّه جديرٌ بالائتمانِ عليّ.. [وانفجرتْ تبكي بُكاءً عنيفًا] أخْشى أن تكونَ مُجرّدَ حُجّةٍ للابتعادِ عن فتاةٍ لا يحترمُها يا (سماح).. فتاةٍ سهلةٍ.. رخيصة.
- [في غضب]: تماسكي يا (رانيا).. لماذا تُسقطينَ الخطأَ كلَّه عليكِ وحْدَكِ وتُسْقطينَه عنه؟.. ألمْ يُشاركِّ هو أيضًا ما فعلتما؟.. بل ربّما هو الذي أدّى بكِ إلى الخطإِ بكلماتِه أو لمساتِه.. لماذا تُعفينه إذن منَ اللائمةِ وتَنحينَ بها كلِّها عليك؟

- هذه هي قواعدُ مجتمعِنا المريضِ يا (سماح).. الخطأُ فيه حقٌّ مُكْتسبٌ للرّجل، وجريمةٌ لا تُغْتفرُ للمرأة.. إنَّ المُجتمعَ لا يُعيّرُ المرأةَ بزوجِها الذي يخونُها، بل يُشفقُ عليها ويتضامنُ معها، ولكنّه يُعيّرُ الرّجلَ ويُذلُّه إذا خانتْه زوجتُه، مما يجْعلُ الرّجلَ حذرًا جدًّا في اخْتيارِ شريكةِ حياتِه، شديدَ الغَيْرةِ عليها، لا يسْمحُ لها بما يسْمحُ لنفْسِه من أخطاءٍ أو حرّيّات، خاصّةً أنَّ أيَّ شكٍّ في سلوكِها يجْعلُه يشكُّ في نَسبِ أولادِها: هل هم منه أم من غيرِه!.. [وتنهدّتْ بحُرقة] ماذا سيظنُّ بي (رفيق) الآن؟.. أنا وأنتِ نعرفُه جيّدًا، ونعرفُ أنّه يُفضّلُ طرازًا معيّنًا من الفتياتِ يَملْنَ إلى الاحْترامِ ويلتزمْنَ العفاف.. ونعرفُ أنّه ــ رغمَ جاذبيّتِه ــ ازْورَّ عن مصادقةِ الكثيراتِ لأنّه لا يحْترمُهنّ.. [ونظرتْ إليَّ في استْنْجاد كأنّها تغرَق] هل يراني منهنّ الآن يا (سماح)؟.. هل سيغْفرُ لي رسوبي في أوّلِ اختبارٍ أمامَه؟.. هل سيظنُّ أنّني أفعلُ هذا مع كلِّ مَن يُخدّرُني بكلمتينِ ناعمتين؟.. ماذا سيظــنُّ بي يــا (سماح)؟.. ماذا؟

عقدْتُ حاجبيَّ وأنا أشردُ بعيدا.

يا إلهي!.. من أين أتتْ (رانيا) بكلِّ هذا التحليلِ الأسود؟

لمْ أكُنْ أعرفُ أنّها تُفكّرُ بكلِّ هذا العُمقِ المُخيف.

لا شكَّ أنّي كنتُ أعتقدُ أنَّ العَلاقةَ بينَ الرّجلِ والمرأةِ الآن، أيســرُ بكثيرٍ عمّا مضى.

هل كلُّ ما نالتْه المرأةُ اليومَ من حريّة، مجـــرّدُ مظـــاهرَ تافهـــة، وبعضُ اللهوِ في سنَّ اللهو، دونَ أنْ يُغيّرَ الرجـــلُ فكرتَـــه عنهـــا مطْلقًا؟

ما زال يراها هي كما هي: جاريتَه التي لا يحقُّ لها أن تُفكّرَ فـــي سواه، تَقْبلُ أخطاءَه، وتُقبّلُ قدَمَه كلّما واجهَهـــا بنزواتِـــه، دونَ أن تجرُؤَ على الاعتراض.

وجدْتُ نفسي أتمتمُ مع هذه الأفكار:

- ولكنّ هذا ظلم.. ظلم.

قالتْ في ندم:

- أنا التي ظلمْتُ نفسي يا (سماح).. كنتُ أعرفُ كلَّ ذلك، وتبخّرَ من ذهني في لحظة طائشة.. المرأةُ الآنَ تسيرُ على حبلٍ شائك مُعلّقٍ فوقَ الجحيم.. ففي كلِّ لحظة عليها أن تُثبتَ للرجلِ أنّها امرأةٌ عصريّة، تعرفُ آخرَ خطوطَ (الموضة)، وتُتْقنُ فنَّ (الاتيكيت)، وتُبهرُه بما تعرضُه أمامَ ناظريه من جسدِها، دونَ أن تبدوَ مُبْتذلةً أو رخيصة!.. وحينما يقعُ في حُبالتِها، ويحاولُ أن ينالَ المزيدَ من جمالِها الخفيّ، تسرعُ بالهروبِ منه والدّلال، حتَّى لا تفقدَ كرامتَها في نظرِه، وحتَّى لا يجدَ وسيلةً أخرى للحصولِ عليها غيرَ الزّواج.. [وابْتسمَتْ في سخرية] أتعلمينَ مثلا: أبي الذي يشتري لي آخرَ الفساتيـــنِ على (الموضـــة)، والتي تجعلُنـــي مثيرةً جذّابـــةً ككلِّ الفتيات (المودرن).. أبي هذا لو علمَ بما حدثَ اليومَ ــ وهو ما تَرَيْنَه أمرًا هيّنًا: مُجرّدَ عناقٍ هادئ ــ لتبرّأَ منّي إلى

الأبد، أو ــ على أحسنِ الفروض ــ لضربني علقةً ساخنة، وقاطعني مدةً لا أعرفُ مداها.. إنه تناقضٌ بشعٌ يا (سماح)، ويجبُ أن نسيرَ فيه بمنتهى الحذرِ والذّكاء، حتَّى نصلَ إلى منطقةِ الأمان.

- [بذهول]: يا للهول!.. هل كنتِ تصفينَ الجحيمَ للتوّ؟

- بل هو واقعٌ يا (سماح).. إننا في مجتمعٍ متناقضٍ مشوّه، لا عاد شرّقيّا يُحافظُ على احتشامِ نسائه، ولا صار غربيّا يمنحهنّ مُطلقَ حرّيتهنّ.. في الغربِ مثلا يمكنُ أن تجدي امْرأةً تتحدّثُ عن طموحاتها العمليّةِ في الحياة.. ولم لا؟.. إنّها تستطيعُ أن تعيشَ بلا زواجٍ لأيّ فترةٍ تشاء[1]، فهي تحصلُ على متعتها الجسديّةِ بوسائلَ أخرى، لمْ يَعَدْ يعيبُها الغربُ في فسادِه الحاليِّ الشنيع.. وهي تستطيعُ أن تعيشَ مع رجلٍ سِفاحًا بلا زواجٍ كفترةِ اختبار، فتتزوّجَه لو راقها، أو تنفصلَ عنه في أيَّ وقتٍ إذا ملّتْه أو ساءتِ العلاقة.. إنّها حُرّةٌ تمامًا، مسئولةٌ عن نفسها كاملَ المسئوليّة.. أمّا هنا، فإنّ الفتاةَ لا تخرجُ من سيطرةِ أبيها إلا لتدخلَ في سيطرةِ زوجها، وويلٌ لها لو عاشتْ عانسا أو أرملةً أو مطلّقة!.. [وابتسمَتْ هاكمةً] إنّ مشكلةَ المرأةِ منّا أنّها تحاربُ بكلِّ أسلحتِها، حتَّى تفوزَ بزوجٍ مناسب، قبلَ أنْ يفوتَها القطارُ وتحملَ اللقبَ المُرعب: لقبَ "عانس".. وهي هنا محكومةٌ بقوالبِ المجتمع، فلا تستطيعُ مثلا حينما يأتى على بالِها الزّواج ــ ولا شيءَ يشغلُ بالَها إلا الزواج ــ أن تذهبَ إلى رجلٍ يروقُها وتقولَ: "أنتَ تعجبُني.. هل تقبلُ أن

أتزوَّجَك؟".. لأنّها لو فعلَتْ ذلك فستضعُ نفسَها في خانة حقيرة، وسيحذرُ منها رجلُها وقد يُسيءُ الظنَّ بها.. لذلك تلجأُ إلى اللفِّ والدوران.. تجعلُ من نفسها ما يشْتهيه ويتمنّاه، وتحاولُ أن تجذبَه إليها بالنظراتِ الناعسةِ والبسْمةِ الخجلى، وتُشْعرَه في كلِّ لحظةٍ، أنّه هو الصيّادُ الهُمامُ الذي يسعى إلى مطاردتِها والتغريرِ بها، وهي الفريسةُ المسكينةُ التي سقطَتْ صريعةَ هواه، ولكنّها تخافُ من أبيها والمجتمع، ولا يُمكنُ أن تسمحَ له بالتّمادي أكثرَ من هذا، فَيُهْرَعُ الصيّادُ الشّجاعُ على الفورِ ليدخلَ القفصَ طواعيةً!.. إنها لعبةٌ معقّدةٌ يا (سماح) ولها قواعدُها، ويجبُ على كلٍّ منّا أن تُتْقنَها، حتّى لا يسحقَها المجتمعُ يومًا، أو تفقدَ فرصتَها في اختيارِ الرجلِ الذي تحبُّه، لأنّها تسرّعَتْ وأرادتِ اختصارَ الطريق، وتجاهلَتْ بعضَ قواعدِ اللُّعبة.

- [في توتّر]: ولكنّها لعبةٌ سخيفةٌ يا (رانيا)، وتحوي الكثيرَ من الخداعِ والغشّ.

- أنتِ تقولينَ هذا؟.. انظري إلى نفسكِ لتعرفي أنّكِ تُتقنينَ اللعبةَ بالفطرة.. ألم تجلسي ثلاثَ ساعاتٍ أمامَ المرآة، تحاولينَ إبرازَ كلِّ ما تستطيعينَ من مفاتنِكِ لكي تُبْهِري (إياد) اللَّيْـــــ...

ذكّرني كلامُها أنّ (إياد) ينْتظرُنا، فتلاشى كلُّ شيءٍ من ذهني، إلا أن أهتفَ أقاطعُها:

- تبًّا لكِ أيّتُها المفعوصة.. أرأيتِ كيفَ أضعْتِ وقْتَنا؟

وجذبْتُها من يدِها بقوّة، مُسرعةً إلى (إياد).

إلى صيّادي.

---

[1] من نتائج تأخّر سن الزواج للمرأة في (أمريكا) انتشار العقم، بسبب استخدام حبوب منع الحمل، وتخطّي الفترة المثلى للإنجاب (١٨ ــ ٣٥).. لهذا تقول الإحصائيّات إنّ كلّ طفل أمريكي أبيض صحيح يولد، ينتظره ٢٠ زوجًا وزوجة من أجل تبنّيه!

٤- ليلةٌ أسطوريّة

ليلةٌ من ألفِ ليلةٍ وليلة.

أنيقًا كان.. وسيمًا كما هو دومًا، يخلُبُ لُبّي بكلِّ شيءٍ فيه.

رآني فاستقبلني على بابِ المنزل، وصافحني فخدّرتْني لمْستُه، وتأمّلني فأبهجتْني التماعةُ عينيه بالإعجاب.

خُيّلَ إليَّ أنّي أحْلُم.

همسَ في رقّة:

- هل أنتِ مستعدّة لليلتنا؟

ابتسمتُ قائلةً في سعادةٍ لا أخفيها:

- بكلِّ أعماقي.

نقلَ يَدي من يُمناه إلى يُسراه، وصافحَ (رانيا) مُتسائلا:

- وأنتِ يا (رانيا)؟

- [بابتسامةٍ باهتة]: إنّي على استعدادٍ تامّ.
- عجبًا!.. ألمحُ آثارَ سيولٍ على مُقلتيكِ!
- [مصطنعةً ضحكةً متوتّرة]: يبدو أنّ طقسي كانَ سيّئًا بعضَ الشّيء.. لا عليك.. إنّي في خيرِ حال.
- حسنًا.. ما رأيُكُما الآنَ أنْ أُعرّفَكما بـــ (شادي) و(وفاء)؟

وجذبني من يدي صوبَ السّيّارة، حيثُ مالَ علـــى أذنـــي ونحـــنُ سائرانِ وهمس:

- إنّكِ رائعةٌ الليلة.. أخشى أن يقتلَني أيُّ شابٍّ لاختطافِكِ منّي.
- [هامسةً]: وهل ستسمحُ له ببساطة؟
- محال.. حتّى لو نجحَ في قتلي، فسيكتشفُ أنّه تعيسُ الحظّ، فقد كتبْتُ في وصيّتي للورثة، أن يُحافظوا على كَنزيَ الثمينِ للأبد.
- (إمْ).. لهذا اصْطحبْتَ معَكَ وريثيك!.. تخطيطٌ مُحكمٌ أيّها البطل.

أشار إلى أخويه اللذين يُغادرانِ السّيارةَ قائلا:

- تعرّفي إذن بمُنْقذَيْكِ من بعدي.. [وأشارَ إلى لشابٍّ أنيقٍ لا يقلُّ عنه وسامةً] (شادي).. يصغرُني بعامٍ واحدٍ فحسب.. السنةُ الثانيةُ بكلّيّةِ الألسن.

تمتمَ (شادي) وهو يُصافحُني:

- هاي.. لا بدَّ أنّكِ (سماح).
- وكيف عرفتَ على وجْهِ التحديد؟

- (إياد) يا آنستي.. طيلةَ الوقتِ يتحدّثُ عنكِ، فبتُّ أتخيّلُ كلَّ لمحةٍ منك.

دقّ قلبي مع عبارتِه، وزغردتِ السعادةُ في أعماقي، فتمتمْتُ باندفاع:

- حقًّا؟

صافح (رانيا) قائلا:

- وبالطبعِ أنتِ (رانيا)، فلا (سماح) بدونِ (رانيا)!.. أليسَ كذلك؟

تمْتَمتْ تجامله:

- أنا هي.. سَعِدْتُ بمقابلتِكَ يا (شادي).

وأشارَ (إياد) إلى فتاةٍ جميلةٍ في منتهى الأناقة، ترتدي فستانا قصيرا ولا أدري كيف كانت تحتملُ البردَ القارص، وقال:

- وهذه (وفاء).. أختي الصّغرى.. السّنةُ الأولى بكلّيّةِ الآداب.

صافحتْنا (وفاء) وهي تتمتمُ بعبارةٍ مجاملة، قبلَ أنْ تهتفَ في عتاب:

- كفانا ما ضيّعنا من الوقْتِ يا (إياد).. هيّا قبلَ أنْ نتأخّرَ على باقي الثُّلّة.

أشارَ إلى السيارةِ قائلا:

- لا بأسَ.

وهمسَ لي في أسف:

- آه.. سأُضطرُّ إلى تركِ يدِكِ يا عزيزتي، فستُحشرينَ مع (وفاء) و(رانيا) في المقعدِ الخلفيّ.

وتركَ يدي، وأتمنّى لو لمْ يفْعلْ قطّ، فأحْسسْتُ فيها ببردٍ شنيعٍ يتوقُ لدفْئِه، ولكنّي أسرعْتُ مُستسلمةً أندسّ مع (رانيا) و(وفـــاء) فـــي المقعدِ الخلفيّ، لينطلقَ بنا (إياد) على الفور.

إلى عالَمِ السّحْر.

*****

ليلةٌ من ألفِ ليلةٍ وليلة.

يكفي أنّه كانَ معي.. كانَ لي.. وحْدي.

أحسَسْتُ أنّ كلَّ تلك الليلةِ ملكي.. كلَّ الأضواءِ الملوّنةِ لي.. كـــلَّ الأغنياتِ الراقصةِ لي.. كلَّ الضحكاتِ والسّعادةِ لي.

أحسَسْتُ أنّها ليلةُ عُرسي أنا، لا ليلةَ عرسِ السّنةِ الجديدة.

كنّا نحتلُّ مائدتينِ مُتجاورتين، أنا وهو و(رانيـــا) علـــى واحـــدة، و(شادي) و(وفاء) وصديقاهما (نهاد) و(مهجة) على الأخرى.

ظلّتْ (رانيا) باديةَ الكآبـــة، تراجعَتْ بمقعدِهـــا عـــن المائـــــدة، واكتفَتْ بمراقبةِ الفتيانِ والفتياتِ يتراقصونَ ويمرحونَ حولَنا، دونَ أنْ يبدوَ لي إطلاقًا أنّها تراهم.. فقطْ: شاردةً بعيدًا.

كنْتُ أشعرُ بالألمِ من أجلِها، ولكنّي لمْ أكـــنْ فـــي مندوحـــةٍ مـــن أحاسيسي لأنفردَ لها، فبجانبي كانَ صيّادي، ينظرُ في عينيَّ برقّـــةٍ تسْحَرُني، ويميلُ ليهمسَ لي بكلماتِه الخلّابة، ويُلقي دُعاباتِه الظريفةَ فنضحكُ معًا من قلبِنا، وقد يروقُ لـــ (رانيا) أن تُجاملَنـــا تـــارةً، وتتجهّمُ شاردةً تارات.

قالَ لي، وهو يمُدُّ يَدَه ليحتضنَ راحتي:

- (سماح)؟.. أتدرينَ بماذا أشعرُ الآن؟

- [وأنا أتسلّلُ إلى عينيه من بينِ رموشي]: بماذا؟
- [ضغطَ أصابعي وعيناه تجوسانِ في مفاتني]: أشعرُ أنّي أجلسُ مع أروعِ حوريّةٍ من حوريّاتِ الفتْنةِ في الكونِ كلّه.

بعثرتْني عبارتُه شظايا مُتعة، فضحكْتُ قائلةً وأنا أشيرُ حولي:

- يبدو أنّكَ مُصابٌ بقِصَرِ النّظر!.. ألا ترى حولَكَ كلَّ هذا الكمِّ من الفاتنات؟
- ولا واحدةٌ منهنَّ تستحقُّ نظرة.. إنَّ جمالَكِ يطغى على وجودِهنَّ، كأنّهنَّ ماساتٌ زائفةٌ من الزجاج، تعكسُ أنوارَ ماسةٍ حقيقيّةٍ رائعةٍ مُضيئة.

كُنْتُ ألتقطُ أنفاسي بصعوبة، وقلبي يكادُ يحترقُ لتطاحنِ نبضاتِه، ولكنّي كالحمقاءِ نظرتُ في عينيه بدلا من أفرَّ من روعتِهما، فاخترقتْ عيناه وجداني كنَجمتينِ باهرتين، وراحتا تسْكُبانِ كونًا كاملا مِن الضّياءِ في رُوحي، فلمْ أَعُدْ أشعرُ بشيءٍ ممّا حولي، ولا حتَّى بأناملي التي بينَ أناملِه، بل كأنّني أنا التي بينَ رموشِه، أسري على خفقاتِ قلبي، إلى عالمِ أحلامي البهيج.

همسَ في تَمَنٍّ مُتحسّر:

- آهٍ لو كنّا بمفْردِنا!.. لا أريدُ لأيِّ شيءٍ تافهٍ أن يُزعجَني عنكِ.. [برجاء] لماذا لا نتركُ هذا المكانَ البغيض، إلى أيِّ مكانٍ هادئ؟.. أريدُ أن أُخبرَكِ بأشياءَ كثيرة.

تلهّفَتْ أعماقي للاستجابة، ولكنّي قُلتُ بابتسامة:

- أودُّ، ولكنْ غيرُ ممكن.. كيف سنترُكُ كلَّ مَن معنا لننطلقَ دونَهم؟

لم يُلحَّ مطلقًا أن قالَ في استسلام:

- كما تهوَيْنَ يا (سماح).

وصمتَ لحظةً، وأدارَ بصرَه فيما حولَه، حيثُ قالَ فجأة:

- انظري: لقد نفروا إلى الرّقص.

شاهدْتُ الأربعةَ يتّجهونَ إلى حلبةِ الرّقص، (وفاء) تُراقِصُ (نهاد)، و(شادي) يُراقصُ (مهجة)، والموسيقى مجنونة، والجميعُ يتلَـوَّوْنَ ويتقافزونَ بهستريا، وسْطَ الأضواءِ الدّمويّةِ المتوتّرة.

وتأمّلني (إياد) لحظةً وقال:

- أعرفُ أنّكِ لا تُحبّينَ هذا النوعَ العنيفَ من الرّقص.. أنا في الواقعِ أدّخرُكِ لشيءٍ أرقى.. [والتقطَ قائمةَ الطعامِ من فوقِ المائدة] أليسَ من الأفضلِ البدءُ في اختيارِ الطعام؟.. أنا شخصيّا بدأتُ أشعرُ بالجوع.

- [بتردّد]: (إياد).. هل.. هل أسألُكَ سؤالا؟

- تفضّلي.

- إنّه سؤالٌ فضوليٌّ أخشى أن يُضايقَك.

- يُضايقُني؟.. إنّكِ لا تستطيعينَ مضايقتي حتَّى لو أردْتِ.. أتحدّاك!

وضغطَ على راحتي مُشجّعًا، فتذكّرتُ فجأةً أنّها بينَ أناملِـه منـذُ دهر، فسحبْتُها برفق، ورُحْتُ أفركُ أصابعي، ثمّ نظرْتُ في عينيه أسألُه فجأة:

- لماذا لمْ تصْطحِبْ (صفاء) معنا اليوم؟

صمت لحظة، ثم قال مبتسما:

- غدًا أقولُ لك.
- و.. ولماذا لا تُجيبُني الآن؟
- هل يُضايقُكِ عدمُ وجودِها؟
- [باستنكار]: أنا؟.. كلا بالطبع.. [واحمرّ خدّاي] أعني.. أعني أنَّه.. مجرّدُ استفسار.
- [بابتسامة]: سأخبرُكِ بأمرٍ مُؤكّد: لقد نظّمْتُ هذه السّهرةَ لأجلِك خاصة.. كُنْتُ أفضّلُ المكوثَ بالمنزل، ولكنْ لمْ أتخيّلْ فرصةً للقائِكِ لا أعْتسِفُها.
- [دونَ أنْ أرفعَ بصري عنه]: و(صفاء)؟
- [ضاحكًا]: إيه.. إنّكِ عنيدةٌ كقطّةٍ صغيرةٍ جائعة!
- [ضاحكةً بدوري]: يا لَـــه من تشبيه!.. فهمْتُ الآنَ لِمَ اقْترحْتَ بدْءَ اختيارِ الطعام.

توقّفتِ الموسيقى الصّاخبةُ في تلك اللّحظة، فتألّقَتْ عينا (إياد) قائلا في حماس:

- الآنَ جاءَ دورُنا.

بدأت الموسيقى الرومانسيّةُ الهادئة، فاعتراني خجلٌ شديد، وفَهْفهْت:

- ولكن.. إنّني...

جذبني من يدي قسْرًا، ليجبرَني على النّهوض، وهو يقولُ بعجالة:

- ألَـــمْ تُلْحِفي فِـــي السّؤالِ عـــن أمْـــرِ (صفاء)؟.. تعالَيْ وســـأخْبرُك.. [واسْتأذنَ (رانيا)] هل تسمحينَ لي يا (رانيا) بمراقصـــةِ هذه القطّةِ الصغيرةِ الجائعة؟

- على رغْبتِك.. ما دُمْتَ لا تَخْشى مخالبَها.
- [باسمًا]: أخشاها، ولكنّ الأمرَ يستحقّ.

قُلْتُ باعتراضٍ واهي:

- إنّني مُرهقةٌ يا (إياد) و...
- [جذبني من يدَي بحزم]: وسترقصين.. أليسَ كذلك؟

وتوقّفَ فجأةً، لأجدَ نفسي معه في حلبةِ الرّقص..

بينَ ذراعيه.

*****

لا يُوصف.. ولا بألفِ كلمةٍ مُغرّدة.. ولا بمليــونِ معجــمٍ مُحلّــقٍ حتَّى.

شعورٌ خلاب، لا يُمكنُ أن يتفهّمَه إلا مَن عاشه من قبل.. أن تكونَ أنثى بينَ ذراعَيْ أحبِّ إنسانٍ لها في الوجود، وسْطَ بحــرِ عينيــه الذي بلا حدود، والأضواءِ الحالمةِ والموسيقى الرّقيقة.

لا لا.. انْسَيْنَ تمامًا أنْ أُحاولَ في وصْفِه.

لا يوصف.. لا يوصف.

*****

قالَ لي، وكُنْتُ أحلم، بالتأكيدِ كُنْت:

- رائعة.. أقسمُ بجمالِك إنّكِ رائعة.
- احترس يا أستاذ، فهذه مغالطةٌ منطقيّة.. إنّكَ تُقسمُ بشيءٍ على صحّةِ نفسِ الشّيء!.. فلكيْ أصدّقَ أنّي رائعة، لا بدَّ أن أعرفَ أوّلا هل أنا جميلةٌ أم لا!

- هيّا إذن.. دعينا نستَفْتِ كلَّ مَنْ حولَنا، وأنا أقسمُ لكِ بجمالِكِ مجدّدًا إنّكَ ستفوزين.

- ها ها.. أنتَ تَزيدُ الموضوعَ تعقيدا!

- ولماذا تُتْعبينَ نفسَك؟.. ألا تكفي شهادتي وَحْدي لإقناعك؟

ابتسمْتُ في عينيه، وغرِقْتُ وتفتّتُّ وذُبْتُ، وشَرَدتُ بعيـــدًا، حتَّـــى كدْتُ أهوي في غشيةٍ من النُّعاس، وأتركُ رأسي تستقرُّ على كتفِه، لهذا سألْتُه مُغيّرةً مجري الحديث:

- لَمْ.. لم تَقُلْ لي شيئًا عن أمرِ (صفاء) بعد!

- [في غيظٍ مَرِح]: تبًّا لـــ (صفاء) ولأمرِ (صفاء)!.. لماذا يقفزُ اسمُ هذه اللعينةِ بينَنا في كلِّ لحظة؟.. [ونظرَ لي في عُمق] (سماح).. انْسَيْ أمرَ (صفاء) هذه تماما.. أنا معكِ أنتِ الآن، ولا أريدُ إلا أن أكونَ معك.. هل تريدينَ أن تعرفي لماذا؟

اضطرمَ قلبي بالنبضاتِ وأنا أسألُه بلا وعْي:

- لماذا؟

جذبَ يدي التي في يَدِه إلى قُربِ شفتيه، ولَثَمَها برقّةٍ مُتناهيةٍ وهو يُتمتم:

- لأنّكِ أروعُ إنسانةٍ في الوجود.. تخيّلي: أنا لمْ أُراقصْ في حياتي كلِّها فتاةً بمثلِ هذه الرّشاقة، ولا مثلِ هذه النعومة!

سَحرتْني إجابتُه، فنظرْتُ إليه أحاولُ قراءةَ أعماقِه، ولكنّه واجهني بعينينِ قويّتين جريئتين، التهمَ بهما كلَّ مفاتني في إعجاب، فأشحْتُ ببصري ولمْ أُعقّب.

وتذكّرتُ فجأةً بعضَ حواري معَ (رانيا) على السُّلَّم، فسَرَتْ على شَفتيَّ ابتسامةٌ خفيفة.

أجل.. أبي هو الذي يشْتري لي فساتيني المثيرة، وهو الذي كانَ سيصفّقُ لي في انبهارٍ لو رآني أراقصُ (إياد) بكلِّ هذه الرّشاقة!

تُرى: كيفَ كانَ سيتصرّفُ لو رآني في نفسِ موقفِ (رانيا) و(رفيق) في الشُّرفة؟

هل عاديٌّ أن يحْضنَ فتىً فتاتَه، أم أنّه شيءٌ مشينٌ يجبُ أن يُعاقبَ وليُّ الأمرِ عليه ابنَتَه؟

لماذا أرهقُ نفسي بالتفكيرِ العقيمِ هذا؟.. إنّني أستمتعُ بما هو مقبولٌ اجتماعيًّا وحسْب.. أليسَ المُهمَّ أن يضمَّني فتايَ إليه؟.. حسنًا.. ها نحنُ ذانِ نفعلُ ذلكَ علنًا أمامَ الجميع، وبمباركتِهم واستحسانِهم.. دعينا إذن من الحالاتِ الخاصّةِ التي يصعبُ استنتاجُ ردِّ الفعلِ الناجمِ عنها.

أفقْتُ من خواطري على صوتِ (إياد) يقول:

- غدًا يا (سماح) تعرفينَ ما أعجزُ عن البوحِ به الآن.

قلتُ في خفوت، وأنا أهرُبُ منه ببصري، حتَّى لا يلمحَ لهفةَ عينيّ:

- بُحِ الآنَ لو راقَ لك.

- لا.. أُفضّلُ أن نستمتعَ بسيرِنا الهادئِ في طريقِنا الورديّ.. أعرفَ أنّ كلينا بدأ يجدُ ما كانَ يبحثُ عنه.. هناكَ شيءٌ جميلٌ يحدثُ يا (سماح)، ولا يجبُ أن نتسرّعَ في الحُكمِ عليه، قبلَ أنْ يُصبحَ ناضجًا، قويًا، صامدا.. [والتمعتْ عيناه بلمعةٍ مُبهرة] وأبديًا.. أتفهمينَ ما أعنيه يا (سماح)؟

ولمْ أستطِعْ أن أجيبَه.
كُنْتُ مبهورةَ الأنفاس.. سعيدةً، وخائفة.
وهكذا هو الحبُّ دوما.

*****

وانْتهَتْ!
ككلِّ شيءٍ جميلٍ يزولُ فجأةً، انتهَتْ ليلتُنا.
سرَقَنا الوقْتُ، ما بينَ الكلامِ والضّحكِ والصّمتِ والشّرود.
انفلتَتْ منّا اللحظاتُ الجميلة، كأنّها حبّاتُ سكّرٍ تذوبُ على لسانينا.
في البدايةِ أوصلْنا (رانيا) إلى منزلِها.
رأيتُها تُغادرُ السّيّارةَ مُرهقةً، لتسيرَ مترنّحةً، وأنا أشعرُ بالأسى حيالَها!
لقد أفسدَ (رفيق) الوغدُ ليلتَها تماما.
كم يُحزنُني أن أتذكّرَ بالغَ لهفتِها للقائِه، وما انتهى إليه هذا اللقاءُ الآن!
لو يعلمُ الإنسانُ المخبوء!

*****

ثمَّ أوصلني (إياد) إلى منزلِنا، وتركَ أخويه في السّيّارة، حيثُ أصرَّ أن يسيرَ بجانبي حتَّى مدخلِ بيتِنا.
وهمسَ وهو يلتهمُ يدي في يدِه:

- آهِ لو كنّا سلحفاتين!
- [ضاحكةً]: لماذا؟.. هل أنتَ مُغرمٌ بجمالِ السّلاحف؟

- مغرمٌ ببطْءِ حركتِها.. لأوّلِ مرّةٍ يا (سماح) أحسُّ بوطأةِ الوقْت.. لماذا لا يتوقّفُ الزّمنُ عندَ اللحظاتِ الممتعةِ التي نهواها؟.. ويلي!.. لقد وصلْنا سريعًا إلى مدخلِ بيتِك.

والتقط يدي الأخرى في يدِه، ونظرَ في عينيَّ صامتًا، فأحسسْتُ أنّه يقرأُ تعويذتَه السّحريّة، التي جعلتِ الزمنَ يتوقّفُ بالفعل، وشلالاتٌ من الأحاسيسِ الجميلةِ تنسكبُ داخلي.

ولمْ أشعرْ بمرورِ الوقت، إلا حينما وجدْتُ نفسي بينَ ذراعيه فجأةً، فأسرعْتُ أتملّصُ منه، وانطلقْتُ أرتقي السّلّمَ قفزًا، وكلُّ ذرّةٍ في جسدي تلهثُ في عُنف.

وحينما دخلتُ الشّقّةَ وأغلقْتُ البابَ خلفي، توقّفْتُ لألتقطَ أنفاسي بصعوبة، وأنا أتمْتمُ في ذهول:

- يا إلهي!.. ما الذي يفعلُه بي هذا الفتى بالضبط؟

وأغمضْتُ عينيّ، وسَرَتْ على شفتيَّ ابتسامةٌ منتشية، قبلَ أنْ أُهْرَعَ إلى النافذة، لأزيحَ ستائرَها بلهفة، وأرمي ببصري إلى الشارع، حيثُ وجدْتُه واقفًا بجوارِ سيّارتِه وبصرُه مُعلّقٌ على النافذة، ولم يكدْ يلمحُ طيْفي، حتّى ابتسمَ مُلوّحًا لي بأصابعِه، فلوّحْتُ له براحتي وبقلبي وبروحي، فاندسَ في سيّارتِه وانطلق.

آه.. مَنْ يعيدُ لي قلبي منه؟

*****

دوارٌ لذيذٌ هادئٌ يغْمرُ كِياني، كنَسْمةٍ رقيقةٍ تُرقرقُ سطحَ يَنْبوعٍ رائق، فتُعيدُ صياغةَ الموجوداتِ المُنْعكسةِ على صفائِه.

إنّها لحظةُ غيبوبة: مَنْ أنا؟.. ما معنى الرَّدهةِ المظلمـــة؟.. لمـــاذا أُحملقُ شاردةً عبرَ النافذةِ إلى أسرارِ الليل؟.. من هـــو (إيـــاد)؟.. أحقًّا هو مُنفصلٌ عنّي؟.. له جسدٌ آخر؟.. عينانِ وشفتانِ وأحـــلامٌ صغيرة؟.. أحقًّا هو بعيدٌ الآن؟.. لماذا حينما أنظرُ في قلبـــي أراه، وحينما أنظرُ حولي لا أراه؟.. هل إذا نظرتُ الآنَ فـــي المـــرآة، سأرى انعكاسَ صورتِه عليها؟.. ما الذي يُرغمُني أنْ أبقـــى معـــه بضعَ ساعاتٍ فحسْب؟.. ما فائـــدةُ العمرِ إذن، إذا لمْ يَكُنْ كلُّه لَه.. معه.. به.. فيه؟.. آه.. أحبُّه.. أحبُّه.. أحبُّه.

كُنْتُ على وشكِ الجنون، والأفكارُ والأحلامُ الأفيونيّـــةُ تتقـــاذفُني بهوجائيّة، تُقسمُ ألا تتوقّفَ قبلَ أنْ يُغشى عليّ في موضعي.

ولولا مسّةٌ خفيفةٌ على كتفي، كادتْ تُوقفُ قلبي ذُعرًا، ما أفقْت.

والتفتُّ مُروَّعَةً، وقلبي يَثبُ عبرَ حلقي هاتفةً:

- ماذا هناك؟

ابتسمَ (رفيق) بشحوب، وقالَ ــ وسخريةٌ عجوزٌ من بقايـــا زمـــنِ سخريتِه، تتوكّأُ على منسأةِ صوتِه، التي أكلتْها دابّةُ الحُزن:

- رويدَكِ يا (سندريلا).. لستُ أنا السّاحرةَ الشّريرةَ بالتأكيد.

أخذتُ نفسًا عميقًا لأستعيدَ هدوئي، وقُلْتُ أُمسكُ عليه زلّتَه:

- لا توجدُ ساحراتٌ شرّيراتٌ في قصّةِ (سندريلا).. هناكَ فقط زوجةُ الأبِ المتسلّطة، والأخواتُ القاسيات.. دعْكَ أرجوكَ منَ التّطفّلِ على الأدب، وظَلَّ أنتَ في علومِكَ ومعادلاتِك.

لمْ يُجابِـــه عبارتـــي كما توقّعت، وهو يقفُ بجواري أمامَ النّافذة، يُطلقُ نظراتِه بعيدًا.. عميقًا في جوفِ الليلِ السّحيق.

- ماذا بكَ يا (رفيق)؟

- حزين.

- [قبضْتُ على أصابعِه بحنان]: لماذا تصنعُ كلَّ هذه المُشكلةِ من لا شيء؟.. أنتَ تحبُّها وهي.. لماذا تريدُ تعقيدَ الحقائقِ البسيطةِ إذن؟

- لنْ أستطيعَ أنْ أواجهَها مرّةً أخرى يا (سماح).. سأذكرُ فعلتي الآثمةَ كلّما نظرتُ في روعةِ عينيها.. سأظلُّ خائفًا عليها من نفسي، لأنّي ــ وظننْتُ أنّي أكثرُ أهلِ الأرضِ حُبًّا لها وحرصًا عليها ــ لمْ أستَطِعْ حمايَتَها من ضعْفي.

- [باسْتنْكار]: (رفيق).. هل حدثَ بينكُما غيرُ ما رأيْت؟.. لقد ضممْتَها في صدْرِكَ بمنتهى الرّقّةِ والحنانِ فحسْب.. لماذا تتكلّمُ كما لو كنتَ فتكْتَ بها؟

- [بمرارة]: وما الفارق؟

- فارقٌ ضخْمٌ طبعًا.. إنَّ ما فعلتُماه هو شيءٌ عاديٌّ تمامًا يفعلُه أيُّ مُتحابّيْن، ويُشاهدُه كلُّ النّاسِ على شاشاتِ التلفازِ ليلَ نهار.

- وهل هو حلالٌ أم حرام؟

- [بتلعْثُم]: لسْتُ بمعرضِ الإفتاءِ الآن.. ومَن منّا لا يفعلُ منَ المُحرّماتِ الكثير؟

- وهل كلُّ المحرّماتِ تتساوى؟

- ....!

- أعني: هل سُبَّةٌ نابيةٌ، مثلُ كذبةٍ، مثلُ شهادةِ زور؟.. هل نظرةٌ لعينِ امرأةٍ، مثلُ نظرةٍ لعوراتِها، مثلُ لمسةٍ ليدِها، مثلُ قُبلةٍ

لفيها، مثلُ الزّنا بها؟.. هل الصّغائرُ كالكبائرِ يا (سماح)؟.. هل الأخطاءُ العفويّةُ الصغيرةُ التي سُرعانَ ما نندمُ عليها، كالأخطاءِ المُتعمّدةِ التي نتلذّذُ باقترافها؟

سرَتْ في بدني رجفةٌ لكلماتِــه، ولمعَتْ في ذهني فجــأةً، بعــضُ الفروقِ التي تلاشَتْ معالمُها بينَ الأشياءِ من فرطِ اعتيادِها، ولكنّي أسرعْتُ أقول:

- أصرُّ على أنّكَ تُعقّدُ الأمور.. حسنًا.. لقد أذنبْتُما.. قُضيَ الأمر.. اندمْ ما شئْت، واستغفرْ كما شئْت، ثمّ انْسَ الأمرَ لو شئْت.. المهمُّ أن تتذكّرَ دائمًا، أنّكَ تستطيعُ تدميرَ قلبِ (رانيا) تمامًا، بأيّ تصرّفٍ أحمقَ تأتي به.
- [أشاحَ ببصره]: لا تفهمينَ شيئًا.. الأمرُ ليسَ بالبساطةِ التي تتصوّرينَها.
- بل أفهم.. أفهم جيِّدا كيف يستطيعُ إنسانٌ تدميرَ حياتِه بيدِه لا بيدِ (عمرو).. أفهمُ كيف يضعُ كلٌّ لنفسِه مقاييسَ الحُكْمَ على الأشياءِ بسيطةً أم مُعقّدة، وكيفَ يأسرُ نفسَه في مقاييــسِه، فيعجزُ عن تجاوزِ الهنّاتِ الهيّنة، ويَتشبّثُ بيديهِ وأسنانِه بإحساسِه بالذّنبِ والنهايةِ والدّمار.. حبٌّ تعذيبِ ذات؟.. غريزةُ فناء؟.. حسنًا يا (رفيق).. سأقولُها لكَ مرّةً أخرى، فلا يبْدو أنّكَ فهمْتَها: اجْلدْ نفسَكَ ما شئْت.. عذّبْ نفْسَكَ كما شئْت.. بل حتّى اقتُل نفسَكَ لو شئت.. ولكنْ حذارِ حذارِ أن تسْحقَ في عماكَ مخلوقةً بريئةً، أنتَ لها كلُّ شيءٍ في الحياة.

- [أضاءتْ في عينيه دمعتان]: وهلْ لمْ أسحقْها حقًّا سَحقا؟.. أنتِ لمْ تعرفـــي ماذا فعلَتْ بها كلماتُكِ حينمـــا دخلْـــتِ علينا الشّرفة.. هذه الفتاةُ يـــا (سماح) ــ وتعرفينَها أكثرَ منّي ــ ضميرُها مُتيقّظ.. حتَّى وإن كانت تُماشي التقاليدَ السخيفةَ في حياتِها الاجتماعيّة، إلا أنّي ألمحُ في عينيها براءةَ ملاكٍ وعفافَ قدّيسة.. ثمّ إنّها ذكيّة.. إنْ لمْ يَمْنعْها ضميرُها عنِ الخطإ، منعها عقلُها.. أتدرينَ إذن حصيلةَ العذابِ حينما يُؤنّبُ امرأً ضميرُه وعقلُه؟

يا إلهي!.. كأنّه قرأ سطورَ نفسِها.. بل كأنّه سمعَ المحادثـــةَ التـــي دارتْ بيني وبينَها على السُّلَّم.

تجاوزتُ أفكاري وقُلتُ:

- إنّها تُحبُّكَ يا (رفيق).. تعشقُك.. تعبدُكَ حتَّى ــ لو جازَ لمخلوقٍ أن يعبدَ مخلوقا.. ودورُكَ هنا هو أن تُساعدَها على الوصولِ إليكَ عبرَ أرضِ الندم.. ساعدْها لاستعادةِ الثّقةِ في ضميرِها وعقْلِها وأخلاقِها.. أنتَ لا تدري كيفَ كانَ حالُها عشيّةً في سهرتِنا: جثّةً متحرّكة.. أرجوكَ يا (رفيق).. سامحْها إن كنتَ تحملُ ضدَّها إصرا.. واستعْتبْها إن كنتَ تشعرُ حيالَها ذنْبا.. ولكنْ إيّاكَ مهما كانَ، أن تتركَها وتتركَ نفسَكَ، لظلمةِ الصّمتِ الأبديّ، وعطشِ الشّوقِ المحموم، وجحيمِ الندمِ الذي لا ينتهي.

وتوجّهتُ إلى الهاتف، وأحضرتُه له قائلةً في حثّ:

- هيّا.. لا تتركْها تتقلّبُ على فراشِ الجمرِ ليلَتَها كلّها.. كلّمْها فورًا.. كلمةً واحدةً حتّى.. قل لها "أُحبُّك" واصمتْ.

نقلَ بصرَه بينَ وجهي والهاتفِ بتردّد، فهمسْتُ أستحثُّه:

- هيّا.

أخذ شهيقًا عميقًا، وتناولَ الهاتفَ منّي، ليضغطَ أزرارَه بأصابعَ مُرتعشة.

وضع المسماعَ على أذنِه، وصوتُ الجرسِ على الجانبِ الآخرِ يصلُ إلى سمعي.

رُفعَتِ السّمّاعة، ليَصلَنا صوتٌ مُختنق، ميّزتُ فيه نبراتِ (رانيا).

صمتَ (رفيق) لحظةً متوتّرًا، فمسَسْتُ أصابعَه مُشجّعةً، فرضَبَ لُعابَه قبلَ أنْ يقولَ مُباشرةً، بصوتٍ مُتهدّج:

- (رانيا).. أحبُّك.

مضتْ فترةٌ طويلةٌ من الصّمتِ على الطرفِ الآخر، فألصقْتُ أذني بسمّاعةِ الهاتف، لأميّزَ صوتَ عَبَراتِها الناريّة، وهي تشقُّ مجراها عبرَ خدّيها.

وفجأةً، جاءنا صوتُ تكّةٍ خافتة، تدلُّ على أنّها وضعتِ السّمّاعةَ في رفق.

تجمّدَ (رفيق) لحظةً في صمتٍ بليغ، ودمْدمتُ أنا في غيظ:

- المجنونة .. أيُّ لوثةٍ هي التي أصابَتْها؟!

- [وضعَ السّمّاعة، وابتسم في مرارة]: لا تلوميها على شيءٍ بعدُ يا (سماح).. كيفَ تأمنُ على نفسِها منّي بعدَ

الآن، وقد كانت البدايةُ كما رأيْتِ؟.. [وأعطاني الهاتف] عن إذنِك.. أحتاجُ أن أخلوَ بنفْسي.

وسار فتوارى في حجرتِه، فهززْتُ رأسي في سخط:

- تبّا!.. لماذا أفسدا ليلةً كهذه؟.. أيُعقلُ أن يحدثَ كلُّ هذا في ليلةٍ واحدة؟

وأعدْتُ هزَّ رأسي، أنفضُ ما بها من أفكار، فتساقطتْ كالتّرابِ عن صورةِ (إياد)، التي تحتلُّ كِياني كلَّه.

وحَرَّدْتُ إلى حُجرتي وهو معي، لأنعمَ بأحلى أحلامي.

لن يستطيعَ هذانِ المأفونانِ أن يَسلُباني أحلى لحظاتِ عمري، بسببِ مثاليّةِ أحدهما وعقلِ الآخر.

إنّني أُحبّ: إذن نَمْ يا ضميري.. نَمْ يا عقلي.

أمّا أنتَ يا قلبي، فلي معكَ حكايات.

٥- المُغامرُ والحوريّة

الحياةُ هي الحياة، ولكنّ مشاعرَنا هي التي تضعُ لها أقنعَتَها المُخْتلفة.

مزيّفةً؟.. وقتيّة؟ ــ وماذا في عمرِنا ليسَ بوقتيّ؟!

ولكنَّا نحبُّها سعيدةً، ونخافُ من أقنعتِها العابسة.

كيفَ تعرفينَ أنّكِ تُحبّين؟

إذا سألتِ نفسَكِ هذه الأسئلة، واستطعتِ الإجابة عنها ــ أو حتى لم ــ فتأكّدي أنّكِ في طريقِ مغامرةٍ من الحبِّ لا نهائيّة:

- هل ارتدتِ الحياةُ قناعَ السّعادةِ فجأةً، وبلا مبرّر؟.. لذيذة؟.. دافئة؟
- هل الأشياءُ التافهةُ المملّةُ أصبحتْ غامرةً بالمعاني؟
- هل تتمنّينَ أن يمرَّ الوقْتُ ببطءٍ لأنّه جميل، وفي نفسِ الآنِ تتمنَّيْنَ أن يمرَّ بسرعةٍ، حتَّى يتحقّقَ الحلمُ الجميل؟
- هل هناكَ (شخصٌ ما)، مثلُ كلِّ البشرِ في كلَّ شيء، تشعرينَ أنّه يختلفُ عن كلِّ البشرِ في كلَّ شيء؟
- هل عيناهُ زاخرتانِ بالسّحر؟.. بسؤالٍ عجيبٍ لا جوابَ له؟
- ماذا فيهما يختلف؟.. لماذا يجذبانِ القلبَ فيخفُقُ بلا تواني؟
- كيفَ تحملانِ كلَّ هذه السّعادةِ وكلِّ هذا الدّفْء؟.. كلَّ هذه المعاني الحُلوة؟

(مجموع الدرجات: ألفُ دقّةِ قلب!)

*****

آه.. بداخلي شلالاتٌ دافئة دافقةٌ أريدُ أن أسكبَها على الورق.

ماذا فعلَ بي هذا الفتى؟

لقد صرتُ أخافَكَ يا (إياد)، مع أنّكَ الوحيدُ في الدّنيا الذي يستطيعُ حمايتي.

*****

قابلْتُه في الصّباحِ الباكر، قبلَ أنْ تبدأَ محاضراتُ اليوم.

استقبلني في صمت.. لم يَقُلْ حتَّى أهلا، ولا أنا قُلْت.

ولأنَّ يدي تعرفُ طعمَ دفءِ يدِه، فقد استقرّتْ في حِضْنِها فورَ أنِ التقطَها.

نعم صَمَت، ولكنْ أقسمُ إنّي سمعتُ كلَّ ما قالَه بوضوح.

عيناه قالتا كلَّ ما يريد:

بهدوء.. بوداعة.. برقّة.. بشوق.. برغبة.. بجنون.

والمرأةُ خيرُ مَن يفهمُ نظراتِ العيون.

ربّما هناكَ مَن يراها ضعيفةَ العقل لأنّها عاطفيّة، ولكنَّ هــؤلاءِ لا يعلمونَ أنَّ عاطفتَها تُضيفُ إلى عقلِها ولا تُنقصُ منه.. مشــاعرَها تضيفُ لها حاسّةً سادسة، تستطيعُ بها أن تسبرَ الأغوار، وتُبحــرَ في النّفوس والقلوبِ.

وما أحوجَ المرأةَ أن تُبحرَ في القلوبِ أعمقَ الإبحار!

إنَّ حياتَها كلَّها هناك.. في أعماقِ مَن تُحبُّهم، تحلمُ بأحلامِهم، وترى أمانيَّهم.

المرأةُ مخلوقٌ مُتفانٍ، خُلقَ ليكونَ نبعًا للأمومة، وأوّلُ طريقٍ للأمومةِ هو الحبّ.. حبُّ الرّجلِ الذي تتمنّى أن تعيشَ له وبه، وتُنجبَ له أولادَه.

أنا لستُ فيلسوفة، فمن أينَ جئتُ بهذا الكلام؟

من صمْتِه.. وهو ينظرُ في عينيَّ وجدْتُ الكلماتِ تتدافعُ في عُمقي، يرصفُ الحرفُ طريقَ الحرفِ الذي يليه، تحضنُ الفكرةُ إيحاءَ لاحقتِها، تصبحُ الحكاياتُ والخبراتُ (والكتبُ المُملّةُ التي ندرسُها في الكلّيّة)، والذّكرياتُ والأحلامُ والأوهام، وطبائعُ النّفسِ الخفيّة، وذكرياتُها عنِ العوالمِ الهلاميّة ــ يُصبحُ كلُّ هذا فجأةً شلالا من الأحكامِ والحِكَم، ومنَ الاستنتاجاتِ والقرارات، هي التي أسردُها عليكنَّ لتوّي!

ثرثارةٌ أنا.. كذلكَ عيناه.

قد أدفعُ للملِ أنا.. لكنْ عيناه لا.. ألفُ لا.

*****

سرنا سويّا، سائحينِ بينَ طُرُقاتِ الجامعة، نشاهدُ الأشياءَ المعتادةَ ونكتشفُها لأوّلِ مرَّة، نشعرُ بالدّفءِ تحتَ شمسِ الشّتاءِ الجميلة.

حتَّى ورقةٌ ملقاةٌ بإهمالٍ تحتَ أقدامِنا أحسسْتُ أنّها جميلة.. (بالطبع ليستْ هذه دعوةً لإلقاءِ الأوراقِ في طريقِ المتحابّين ☺)!

سرنا كما سرنا، لم يتطرّقْ إلى ذهنِ أحدِنا فكرةُ تشويهِ الصّمتِ المعبّر.. عناقُ أيدينا يكفي.

وأخيرًا، حينما جلسْنا على أحدِ المقاعد، قالَ لي هامسًا:

- لن أحضرَ المحاضرةَ الأولى اليوم.

قلتُ بابتسامةٍ سعيدة:

- ولا أنا.

صمتَ لحظة، وهو يطوفُ بعينيه في عينيّ، ثمّ تساءل:

- أتدرينَ ماذا أرى في عينيكِ؟

- ماذا؟

- جنّةً من ذكرياتِ الأمس.. هل أسألُكِ سؤالا؟

- سَلْ.

- مَن هي (سماح فتحي).

- [ضاحكةً]: أنا.

- [باسمًا]: إذن مَن أنْتِ؟.. أيُّ مجموعةٍ من الأحلامِ والذّكريات، الصّفاتِ والعادات، الأفكارِ والمعتقدات، هي التي تُشكّلُ (سماح فتحي)؟

- [بدلال]: ماذا ترى أنت؟

- أرى أبدعَ حوريّةٍ، تنعكسُ شمسُ الصّباحِ عن ملامحِها، كما تنعكسُ عنِ الذّهبِ والفضّةِ وماءِ الغدير.. ولكنَّ للحوريّةِ أسطورة، وأسطورتُها تتكلّمُ عن كنزٍ ولغز.. وخريطةُ الكَنزِ وحلُّ اللغزِ معها هي وحدَها.

- وهل تتوقّعُ أن تمنحَ الحوريّةُ خريطةَ كنزِها لأيِّ مُغامرٍ عابر؟.. ألا تعلمُ أنَّ الخريطةَ موشومةٌ على قلبِها، بنبضاتٍ من الحُلم؟.. تريدُها أن تموت؟

- تموتُ فيه ليحيا بها.

- وماذا ستجْني هي من وراءِ ذلك؟

- [وعيناه ترسمانِ المعاني]: تقولُ الأسطورة: إنَّ المغامرَ لو نالَ كنزَه، فسيحملُ معه الحوريّةَ إلى جنّتِها التي تنتظرُها.

- وماذا لو كانَ الطريقُ طويلا مليئًا بالأخطار؟

- إنّه مُغامرٌ شجاع.

- هذا يعني أنّه بلا قلب.

- تقولُ الأسطورةُ إنّه يخافُ من شيءٍ واحد.

- أيُّ شيء؟

- عينا الحوريّة، فهما أخطرُ من السّهامِ الناريّةِ والعواصفِ الرعدية وقلاع الأهوال.

- لقد حيّرني هذا المغامر.

- وقد حيّرتْه هذه الحوريّة: مَن هي؟.. بماذا تحلُم؟.. هل تمنحُه خريطةَ كَنزِها، وتُدخلُه معها جنّتَها لو حملَها إليها؟.. هل تُوافقُ أحلامُها أحلامَه؟.. تحبُّ ما يحبُّ وتكرهُ ما يكره؟.. هل طريقُهما واحد؟.. يا لها من لُغزٍ غامض!

- ربّما كانت هي أيضًا، لا تعرفُ عن نفسِها شيئا.. ربما كانت تنتظرُ مُغامرَها الذي رأى في جولاتِه وأخطارِه تجاربَ الدّنيا وحكمتَها.. وحينما يحكي لها عن أحلامِه تصيرُ أحلامَها، وحينما يسردُ عليها ذكرياتِه تصبحُ ذاتَها.. إنَّ لكلِّ جنّةٍ حوريّةً، ولكلِّ حوريّةٍ مغامرًا لم تُخلقْ إلا له، تريدُ أن تمنحَه كلَّ شيء، ولا تريدُ منه إلا شيئًا واحدا.

- هو؟

- قلبُ المُغامر.. جنّتُها.. ألا تقولُ الأسطورةُ ذلك؟

- أنا أعرفُ فقط نصفَ الأسطورة، وطيلةَ عُمري أبحثُ عمّن يعرفُ نصفَها الآخر.

ابتسمْتُ في سعادةٍ غامرة، فقالَ مُداعبًا:

- على فكرة: أنتِ مُراوغةٌ كبيرة.. هيّا.. إنَّ لي أذنينِ كبيرتين كما ترَيْن، وأريدُ أن أملأَهما بثرثرةٍ طويلةٍ منكِ.. لا تتركي شيئًا في عقلكِ أبدا.. اسكبيهِ فورًا فيهما.. أريدُ أن أعرفَ حالا: مَن هي المدعوّةُ (سماح فتحي).

ووجدْتُني كالمأخوذةِ أحكي له كلَّ شيءٍ عنّي.

*****

قال لي وهو يتحرك:

- تَعالَيْ نحضرُ المحاضرةَ الثانية.

- [بدلال]: هل مَلَلْتَ منّي؟

- مستحيل.. ولكنّي أريدُ أن أرى رُوحَ المحاضرةِ ونحنُ نجلسُ مُتجاورَيْن.

- لطالما جلسْنا مُتجاورَيْن!

توقّفَ وأوقفني، واستدارَ وجذبَ يدي لأستدير، ونظرَ في عينيّ مباشرةً:

- (سماح).. عديني بشيء.

- أيُّ شيء؟

- ألا تسأليني عــن الماضي مُطلقًا بعــدَ الآن.. كانَ عمري ضائعًا ثمَّ فجأةً ارتدَّ إليَّ أمسِ فحسب.. كنتُ ميّتًا قبلُ، لا أعي، لا أرى، لا أشعر.. والآنَ أنا أحيا وقلبي تغمرُه الأماني.. إنّني الآنَ طفلٌ، أريدُ أن أتعرَّفَ على الدّنيا الجديدة.. أَلمسَ كلَّ شيءَ، أتحسّسَ كلَّ شيء، أتذوَّقَ كلَّ شيء.. أريدُ أن تكونَ أمّي بجواري.. والأمُّ تعني الحنان، الدّفء، الأمــن، والمُرشدَ للغد.. هل فهمْتِ ما أعنيــه يا (سماح)؟

فهْفهْتُ وأنا أرتعش، وقلبي يخفُقُ في شدّة:

- ففْ.. فهمْت.

لاحظَ ارتعاشةَ يدي، فسألني بقلق:

- (سماح).. ما بكِ؟

- ههْ.. لا.. لا شيء.

جذبني مرَّة أخرى وقال:

- إذن هيّا.

وقادني...

إلى المجهول!

*****

لماذا ارتعشْتُ فجأةً مع كلماتِه؟

هذه اللحظةُ لا تبْرحُ ذهني مُطلقًا، بكلِّ المشاعرِ التـــي اعترتْنـــي فيها.

لحظةَ أن محا (إياد) ماضيَه، وحمّلني مسئوليّةَ حاضرِه ومُستقبلِه.

لقد منحني عمرَه كلَّه.

وبقدرِ ما كنتُ سعيدة، بقدرِ ما أرجفني الخوف.

خوفٌ على السعادة.. عليه.. منه.. من المسئوليّة.. من نفسي.. من الغد.. من المجهول.

لا أدري.

لحظاتٌ كثيرةٌ تَلمسُنا فيها مشاعرُ غامضةٌ لا ندريها.

كأنَّ هناكَ شيئًا ناقصًا نسيناه طويلا، تذكّرناه فجأةً، وقبلَ أنْ يثبـــتَ في ذاكرتِنا عادَ طلاءُ النسيانِ ينسكبُ عليه.

فجوةٌ في الغد، في المجهول، انفتحتْ فجأةً فرأينا أحلامَنا، وقبلَ أنْ نعبر، قبلَ حتَّى أنْ نمدَّ أيدِيَنا، انغلقَتْ.

(إياد).. يا لك!

لقد حمّلتَني عمرَكَ كلَّه، فارتعشتُ لأنَّ عمري أيضًا صارَ ملكًا لك.

ليتَكَ ــ يا ليتكَ ــ تُحافظُ عليه.

*****

الحياةُ هي الحياة، ولكنَّ لها أقنعةً بعددِ البشرِ الذينَ يدِبُّونَ عليهـــا، يدأبونَ على الفرحِ والحزنِ والبلادة.

بل إنَّ لها أقنعةً بعددِ لحظاتِ كلِّ فردٍ فيها على حِدَة.. هـــو الـــذي يجعلُ الدّنيا جنّة.. هو الذي يجعلُها جحيمَه.. هو الذي يموت.

والآنَ أنا أُضفّرُ غدائرَ الحياة، وأُلبسُها قِناعَ السّعادة، وأزوّقُها بتاجِ الاستمتاع.

نعم نعم.. صيّادي (إياد) يقودُني لاكتشافِ كلِّ شيءٍ من جديد.

حتَّى أصدقاؤنا المعتادون، حالما رأيناهم أحسسْنا أنَّ ملامحَهم تكتسبُ إيحاءاتٍ جديدة.

وهْم؟.. حقيقة؟.. لا يَهُمّ.. نحنُ فقط من يقرّر.. نحن فقط مَن يَهمّ.

كانت (سوزي) و(أحلام)، وكانَ (رشيد) و(كريم) و(فكري) مجتمعينَ لا ينقصُهم إلانا و(رانيا) و... (صفاء)!

انضممْنا إليهم، وألقيتُ أنا تحيّةً مرحة، ونحنُ نتّخذُ مكانَنا المعتادَ أمامَ مدخلِ الكلّيّة، في انتظارِ المحاضرةِ الثانية.

لاحظْتُ نظراتٍ غيرةٍ في عينيْ (سوزي)، ونظراتِ حَسَدٍ في عَينيْ (أحلام)، أمّا (رشيد) و(فكري) فقد تبادلا نظرةً غامضة، و(كريم) خفضَ بصرَه يركّزُ على عِناقِ يدي ويدِ (إياد)، وملامحُه لا تحملُ أيَّ تعبير.. على الأقلّ: أيَّ تعبيرٍ أستطيعُ فهمَه.

رفعَ بصرَه بعدَها ينظرُ في عينيّ، نظرةً عجيبةً لا أدري لماذا جعلتْني أرتبك، فوجدْتُ يدي تتملّصُ ــ برفقٍ لا يخلو من قلقٍ لا يخلو من حنقٍ ــ من يدِ (إياد).

ورغمَ استماتتِه عليها، إلا أنّني حرّرتُها ــ بئسَ اللفظُ ــ من يدِه، وأشحْتُ ببصري عن (كريم)، لاهجةً بأوّلِ ما جالَ في خاطري:

- ما لي لا أرى (رانيا)؟.. أهي مُتغيّبة؟

قالت (سوزي) بسماجة:

- أنتَ تعلمينَ أنَّ المحاضراتِ اليومَ كلُّها مراجعة.. بالطبعِ لا يُمكنُ أن تتغيّب.

عقّبَ (رشيد):

- أعتقدُ أنّي رأيتُها تجلسُ وحيدةً في آخرِ المدرّج.. لا أدري، ولكنّي لمحتُ على ملامحِها حزنًا شنيعا.

اختلستُ نظرةً لـــ (كريم)، فوجدتُه يُســلّطُ علــيَّ ــ مــا زالَ ــ نظراتِه الجامدة، فأسرعْتُ أقولُ بارتباك:

- حسنًا.. ســـ.. سأذهبُ لأرى ما بها.

هتف (إياد):

- خذيني معك.

أمسكَ (فكري) رُسغَه قائلا بمرح:

- اثْبُتْ.. إنّه حديثُ نساء.

تضاحكوا في مرح، على حينِ رُغتُ أنا منهم بارتباك، ولم تخــلُ نفسي من حنقٍ على نفسي، أن يُساورَها مثــلُ ذيّــاك الارتبــاك، وأخذتُ أتساءلُ في غيظ:

- تبًا لـــ (كريم) هذا!.. لماذا أشعرُ أنّه كخفيرٍ موضوعٍ لمراقبتي؟.. لماذا صارَ بالذّاتِ صديقَ أخي؟.. أعتقدُ أيضًا أنّه سمّمَ أفكارَ (رفيق)، فالأخيرُ لم يكُن يفكّرُ بالطريقةِ المعقّدةِ التي يفكّرُ بها حاليّا!.. هووف.

وتوجّهْتُ إلى المدرّجِ المنشودِ بخطىً حثيثة، وهناكَ ألقيتُ التحيّـــةَ على بعضِ الزميلاتِ، قبلَ أنْ أُحرّدَ مباشرةً إلى (رانيا) في آخـــرِ المدرّج.

٦- الندم

وحيدةً، تنظرُ بشرودٍ إلى دفترِ محاضـــراتِها، وملامحُهـــا حـــزن، وعيناها وَحْشةُ ليلةٍ باردةٍ مطيرة، وأصابعُها تعبـــثُ بقلمِهـــا فـــي حَرَكاتٍ لا شعوريّة.

حتَّى حينما جلسْتُ بجوارِها، لمْ تَعِ ذلكَ أو تنتبهْ له.

قلْتُ بخفوت، كأنّي أحادثُ نفسي، ودونَ أن ألتفتَ إليها:

- أنا لستُ مجنونة، ولكنَّ لي صديقةً أقلُّ ما أريدُ فعلَه بها هو قتلُها.

انتبهتْ، والتفتَتْ، وابتسمتْ بحزنٍ، وتمتمَتْ:

- (سماح)؟.. منذُ متى أنتِ هنا؟

التفتُّ إليها بحدّة، وقلتُ بغضبٍ هامسٍ حتَّى لا أجلبَ نظـــرَ مَـــن بالمكان:

- هل تقدرينَ أن تفسّري لي تصرّفَكِ المأفونَ مع (رفيق) ليلةَ أمس؟

- [بسخرية]: أيُّ تصرفٍ منها تقصدين؟!

- الهاتف!.. أيُّ جنونٍ حداكِ لإغلاقِه في وجهِه؟.. ألَـــمْ يدُرْ بِخَـــلَدِكِ أنَّكِ تستطيعينَ قتلَه؟

نظرتْ إليَّ، والدمعُ في عينيها يَبضَع، فقُلْتُ بحنق:

- ما هذه المثاليّةُ الحمقاء؟.. هو يعتبرُ نفسَه مجرمًا، وأنتِ تعتبرينَ نفسكَ حقيــرة!.. لا داعــيَ لكلَّ هذه التعقيــداتِ النفسيّة!.. أنا لا أعترضُ على التزامِكما بأخلاقٍ معيّنة، ولكنِ اصفحا عن أوّلِ خطإ، واجعلاه آخرَ خطإ.

سألتْني دونَ أن تنظرَ إليّ:

- هل يحتقرُني يا (سماح)؟

صِحتُ في استهزاءٍ واستهجان:

- يحْ ماذا؟

حتَّى إنَّ صيحتي لفتَتْ نظرَ مَن بالمكان، فعُدتُ أخفضُ صــوتي، مُستطردةً:

- يحتقرُك؟!!.. نعم.. يحتقرُكِ لدرجةِ العبادة.. لدرجةِ أنّه يريدُ قتلَ نفسِه من أجلِك.. هذا هو نوعُ الاحتقارِ الذي يُكنُّه لك.. هل يُعجبُكِ مثــلُ هذا النّوع؟

- ولكنّي أعرفُ (رفيق) جيّدا.

- لا.. لا تعرفينَه، لأنّكِ ببساطةٍ لم تقتربي منه إلا بالأمسِ فحسب.

- وهو أيضًا، لم يقتربْ منّي إلا بالأمس.. يا تُرى: ما هو الانطباعُ السّخيفُ الذي أخذَه عنّي؟.. أنّي فتاةٌ رخيصةٌ تتسلّى بالارتماءِ فِـــي أحضانِ كلِّ مَن يُغازلُها؟.. اللعنةُ على غبائي وسخفي.

- (رانيا).. حبيبتي.. أُقسمُ لكِ إنّه لا يحمـــلُ ضدَّكِ أيًّا من هذا.. إنّه حتَّى يفكّرُ مثلَك: يعتبرُ نفسَه المسئولَ عمّا حدث، ويشعرُ بالخِزْيِ لأنّه لم يُحافظْ عليكِ كما ينبغي.. إنّه يُحبُّكِ يا (رانيا).. يُحبُّك.. ألم تسألي نفسَكِ لماذا اتّصلَ بكِ البارحة؟

- [ودموعُها تنساب]: لم أعُد أستطيعُ مواجهتَه يا (سماح).. ربّما كنتُ مجنونةً كما تقوليـــن.. مختلّـــة.. مختلفة.. ربّما أجاريكم وألهو معكم.. ولكنّي لم أتخيّل أبدًا أن أفعلَ أيَّ شيءٍ يُشوّهُ أخلاقي.. آسفةٌ يا (سماح).. لم أعُدْ أستطيعُ تخيّلَ حتَّى مجرّدِ لقائه.

- آخ!.. اثنانِ من المجانين.. كيفَ تكونُ النتيجةُ غيرَ هذا؟.. [ثمّ زفرتُ] حسنًا يا (رانيا).. الزّمنُ كفيلٌ بأن يُعيدَ إليكِ عقلَك، المهمُّ الآنَ أن تنتبهي لمذاكرتِك، فالامتحاناتُ على الأبواب.

واحتضنتُها وأنا أشعرُ بأسفٍ شديد.

*****

جلسنا سويّا أنا و(رفيق) في حجرتِه بعدَ الغداء، حينَ سألني:

- هل رأيتِها اليوم؟

- [بعدَ تردّد]: أجل.

- [وهو يفركُ أصابعَه]: و.. وكيفَ.. كيفَ حالُها؟

- [تحاشَيتُ النظرَ في وجهِه]: زفت!

- (سماح).. أستحلفُكِ القولَ: هل.. هل باتتْ تكرهُني؟

- ليتَها.. ما كانَ هذا حالَها.

- [في حسم]: سأعاودُ الاتصالَ بها.

- لا.. أرجوك.. إنّها تشعرُ بالخجل.. كلُّ ما تحتاجُه هو بعضُ الوقتِ لتنسى.. صدّقني: سَيَعَضُّ الشوقُ قلبَها سريعًا فتعودُ كما كانت.

- هل.. هذا رأيُك؟

- [في إشفاق]: هذا ما نملكُه في الوقتِ الحالي.. [ثمَّ في سخطٍ مفاجيء] ثمَّ ألمْ يَكُنْ أنتَ من طلبَ منها الابتعادَ لفترة، بحجّةِ ترويضِكَ مشاعرَك؟!.. لا أدري أيَّ عبقري كانَ يتقمّصُ عقلَكَ ساعتَها حتَّى تتفوَّه بهذا!.. كأنّكَ كنتَ تطردُها من حياتِكَ بمنتهى الأدب.. تذبحُها بسكّينٍ من حرير.. يا للرّوعة!

- [في عذاب]: أرجوكِ يا (سماح).. كفاني لومُ نفسي لي.. لا تزيديني عذابا.

- [في قلق]: يعلمُ اللهُ يا (رفيق) ما بداخلي من قلقٍ بشأنِكما.. أنا لا أتخيّلْ كيفَ ستجتازانِ الامتحانَ بحالتيكما هاتين!

- [وهو يعقدُ حاجبيه سمةَ التفكير]: إذنْ.. لا بدَّ من تحرّكٍ سريع.

ثمَّ نهضَ واقفًا، والتقطَ سترتَه، فنهضْتُ بدوري أسألُه بقلق:

- إلى أينَ يا (رفيق)؟

- [في حسم]: إلى حيثُ ينبغي أن أتوجَّه.. إلى منزلِها.

حاولتُ أن أؤزّرَ عبارتَه بأيِّ تعليق، ولكنّه كانَ قد مرقَ كالسّهم، ليتركَني وحدي خلفَه، ينهشُني قلقٌ قُضاقِض.

*****

ذهبَ (رفيق) إلى منزلِها كالمحموم، دونَ موعدٍ سابق، وفي وقتٍ يخلُدُ فيه معظمُ الناسِ إلى القيلولة!

هناكَ استقبلَه والداها بالترحاب والتساؤل.

بالتأكيدِ راعَهُما منه مظهرُه العجيب، فالإرهاقُ بادٍ عليه، والحــزنُ يصبغُ مُقلتيه.. حتَّى هندامُه لم يكترثْ به كما ينبغي، قبلَ التوجّــهِ للزّيارةِ التي (طقّتْ) في ذهنِه فجأة!

وما إن قدّمتْ له والدتُها مشروبًا، حتَّى سأله والدُها:

- خيرٌ يا ابني إن شاءَ الله.

تردّدَ (رفيق) لحظة، قبلَ أنْ يندفعَ فجأةً قائلا بلا مقدّمات:

- لقد جئتُ يا عمّي لأطلبَ يدَ الآنسةِ (رانيا).

أصيبَ الاثنانِ بخرسٍ مؤقّت من فرطِ الدّهشة، وتبادلا النظراتِ في تعجّب، فانطلق (رفيق) كمدفعٍ رشّاش:

- إنّني بالسنةِ النهائيّةِ بكلّيّةِ العلوم، وأنا أعملُ مع عمّي في مصنعِه الصغيرِ في الإجازات، وادّخرتُ بالفعلِ مبلغًا لا بأسَ به، وسأواصلُ العملَ معه بعدَ التخرّجِ بشكلٍ دائمٍ إن شاءَ الله.. إنّني الابنُ الذّكرُ الوحيدُ لوالديّ ولن أقضي فترةَ تجنيد.. ولن يُمانعُ والدي ــ لو وافقتَ حضرتُك ــ أن أقدّمَ لـــ (رانيا) شبكةً بسيطةً في منتصفِ العام.. ما رأيُكَ يا عمّي؟

قالَ ولم يقضِ من الأمرِ العجب:

- و اللهِ يا ابني.. لقــد فاجأتَني.. ثمَّ إنَّ التوقيتَ نفسَــه غريب!.. إنّنا في فترةِ امتحاناتٍ و...

لم ينتبِه (رفيق) إلى أنّه من غيرِ الذّوقِ أن يُقاطعَه، فقاطعَه:

- المهمُّ يا سيّدي.. من حيثُ المبدإ: هل تقبلُني زوجًا لابنتِك؟

تبادلَ الرجلُ وزوجتُه نظراتٍ صامتة، قبلَ أنْ يبتسمَ قائلا:

- صحيحٌ أنَّ هذا الموقفَ غريب، يُخالفُ كُــلَّ ما تخيّلتُه عــن اللحظةِ التي يأتي فيها أحدُهم ليطلبَ يدَ ابنتي الوحيدة، ولكنّي شخصيّا لا أحملُ اعتراضًا ضدّك.. بصراحة: لقد تمنّيتُكَ دائمًا لها.

أضافتِ الأمّ:

- أنتَ شابٌّ مهذّبٌ يا بُنيّ وسمعتُكَ طيّبة، وأهلكَ أناسٌ مشهورونَ بأخلاقِهم، وأختُكَ خيرُ صديقةٍ لابنتِنا، التي لا تذكرُكم دائمًا إلا بالخير.

أسرعَ الوالدُ يُضيف:

- ولكنَّ الأمرَ بالطبعِ يرجعُ إلى موافقةِ (رانيا).

هتفَ (رفيق) بلهفة:

- إذن فلنسْألْها.

ضحكَ الوالدُ وقال:

- أنتَ مُتحمّسٌ جدّا.. ماذا هناكَ يا بُنيّ؟.. هل أخبرَكَ أحدٌ أنَّ ابنتي ستتزوّجُ غيرَكَ أو ما شابه؟

- إنَّ (رانيا) في نظري أجملُ وأرقُّ إنسانةٍ في الوجود، ولن يستريحَ قلبي أبدًا حتَّى أعرفَ أنّها لي.

نهضتِ الأمُّ قائلةً:

- حسنًا.. سأذهبُ لأستطلعَ رأيَها.

تابعَها (رفيق) ببصرِه في لهفة، ووالدُها يسألُه:

- أخبرني يا ولدي: هل تعرفُ ابنتي جيّدًا؟

أجابَ وعيناه لا تبرحانِ بابَ الحجرةِ التي اختفتْ فيها الأمّ:

- أنتَ تعلمُ يا عمّي أنّها صديقةُ أختي.. أحيانًا كنتُ أراهما معًا في منزِلِنا، وأحيانًا في الجامعة.. وقد كُنْتُ في كلِّ مرَّةٍ أزدادُ احترامًا لها وإعجابًا بها.

- وهل والداكَ على علمٍ بالأمر؟.. أعني لماذا لم يأتيا معك؟

- ففْ.. في الواقعِ لقد.. لقد فضّلتُ أن أستطلعَ رأيَكم أوّلا، قبلَ أنْ نمضي في الخطواتِ الرسميّة.

- إمْ.. معكَ حقّ.

ظهرتِ الوالدةُ في هذه اللحظة، فقرأ (رفيق) على ملامحِها الحَرَجَ والأسف، فنهضَ يسألُها بقلق:

- هَهْ؟.. ماذا قالتْ؟

أشاحتِ الأمُّ ببصرِها، وقالتْ في إحراج:

- واللهِ يا ابني لا أدري ماذا أقول.. لقد.. لقد رفضَتْ حتَّى أنْ تناقشَ الفكرة.. وأنا التي ظننْتُها تطيرُ من الفرح، من فرطِ حديثِها عنكَ وكلُّه إطراء!

بانَ على وجهِ (رفيق) كلُّ معالمِ الإحباطِ والانصدام، فأسرعَ الوالدُ يقول:

- إنّها المفاجأةُ فقط يا بُنيّ.. دَعْ لها فرصةً مناسبةً للتّفكير، وبإذنِ اللهِ ستصلُ إلى قرارٍ يُرضيك.

قالَ (رفيق) فجأةً:

- أريدُ أنْ أراها.

تبادلَ الوالدانِ النظرات، وقد كادتْ تصـــرفاتُ (رفيــق) العجيبـــةُ المتواليةُ تُذهبُ عقليهما ذلكَ اليوم، فأسرعَ يردفُ برجاء:

- أرجوكما.. دقيقةً واحدةً فقط.

ثمّ في حزنٍ مسَّ قلبيهما:

- إنّها غاضبةٌ منّي فحسب.. أرجوكما دعاني حتَّى أعتذرَ لها.

نظرتْ أمُّها لزوجِها لحظة، فأومأ لها موافقا، فقالت:

- لا بأس.. تفضّل معي.. إنّها تجلسُ خلفَ مكتبِها تذاكر.

وقادتْه إلى الحجرة، طرقتْها وفَتَحَتِ الباب، ودعتْه للدخول، قبلَ أنْ تتركَهما معًا بمفردِهما.

*****

كانت (رانيا) تجلسُ خلفَ مكتبِها باديةَ الحزنِ والكآبة، حينما دخلَ (رفيق).

رفعتْ بصرَها تنظرُ له لحظةً، قبلَ أنْ تُشيحَ ببصرِها في ألم.

لم يَقُلْ (رفيق) شيئًا.. توجّهَ إليها، وجلسَ على مقعدٍ في مواجهـــةِ المكتبِ في صمت.

لم تنظرْ له، فالتقطَ ورقةً وقلمًا، وكتبَ كلمةً واحدة: "أحبُّك".

ودفعَ الورقةَ تحتَ يدِها التي تضعُها على حافّةِ المكتب.

تردّدتْ لحظةً، ثمَّ نظرتْ إليها بدافعِ الفضول، لتبتسمَ في سخريةٍ حزينة.

مدّ لها (رفيق) يدَه بالقلم.. تركتْ يدَه ممـــدودةً لحظـــة، قبـــلَ أنْ تختطفَ القلم، وتنظرَ له بتحدّي.

وبرعونةٍ طائشة، شطبتْ الكلمةَ التي دوّنَها بقلبِه.

اعتصرتْ قبضةٌ جليديّة قلبَه، وأطرقَ لحظـــة، قبـــلَ أنْ يتســـاءلَ بخفوت:

- لماذا؟

أشاحتْ ببصرِها، ولم تُحِرْ جوابًا، فسألَها بتألّم:

- هل تكرهينني حقًّا لهذه الدّرجة؟

فتحَتْ فمَها تهمُّ بالإجابة، ولكنّها عادت فأطبقتْه فقال:

- لقد جئتُ لأطلبَ يدَك.. أيَّ اعتذارٍ تريدينَ فوقَ هذا؟

قالتْ بمرارة:

- لا أريدُ أن يخطبَني أحدٌ بدافعِ الشّفقةِ أو الاعتذار.

- ولا بدافعِ الحبّ؟

- ماذا تعرفُ عنّي لكي تُحبَّني؟.. ما معنى هذا الحبّ؟

- أنا أعرفُ عنكِ كلَّ شيءٍ يا (رانيا)، ولستُ مُراهقًا كيلا أفهمَ معنى الحبّ.. لقد عرَفْتُ فتياتٍ كثيراتٍ قبلَك، فلمْ تختلجْ فيَّ نبضةٌ لإحداهنّ.

- إذن ما الذي أعجبَكَ فيّ؟

- أعجبني (رانيا).. التركيبةُ العجيبةُ من الطّباعِ والتّصرّفاتِ والأفكارِ التي هي أنتِ.. جمالُكِ الذي يُدغدغُ قلبي.. رقّتُكِ المتناهية.. أخلاقُك.

- أخلاقي؟!!.. أيّةَ أخلاقٍ تقصد؟

- لقد أخطأنا حقًا يا (رانيا).. ولكنَّ الخطأَ ليسَ أصيلا فينا.. أليسَ خيرَ دليلٍ على هذا هو ندمُنا هذا؟

- [بحدّةٍ متحدّية]: أيّةَ أخلاقٍ تقصد يا (رفيق)؟.. أريدُ أن أفهمَ معنى الأخلاقِ عندَك.

- فليكن.. لن أقولَ لكِ إنّكِ أكثرُ مَن رأيتُهنَّ احتشامًا، ولا إنّكِ أكثرُهنَّ خجلا، ولا إنّكِ تسيرينَ لا ترفعينَ طَرْفَكِ عنِ الأرض، ولا إنّكِ تتلعثمينَ حينما تُخاطبينَ الغرباء.. كُلُّ هذه شكليّاتٌ زُخرفيّةٌ نستطيعُ صناعتَها.. نعم الاحتشامُ والخجلُ من أهمِّ معاني الأخلاق، ولكنَّ أهمَّ ما أراه فيكِ هو ضميرُك.. الضميرُ يا (رانيا) عندي يُساوي الأخلاق.. وهو لا يعني ألا يُخطئَ المرءُ مُطلقًا، فهذا أعلى من قُدرةِ

البشر، ولكنَّه يعني أنّه إذا قارفَ الأخطاءَ الصغيرةَ نَدِم، وإذا ندمَ لمْ يَعُدْ إلى الخطإِ نفسِه مرَّةً أخرى.

- وهل أنا كذلك؟

- (رانيا).. أنا أثقُ في أخلاقِك.. معنى هذا أنّني أأتمنُكِ على شرفي وأريدُكِ زوجتي.. إنَّ روحَكِ شفّافة، ولأنَّ بصري ثاقبٌ، فقد قرأتُ فيها طيبَ طويَّتِكِ وروعةَ خِصالِك.. أرجوكِ يا (رانيا).. دعينا ننسى ما حدث.

نظرَتْ له لحظة، ثمَّ أشاحتْ دامعةً هاتفةً:

- لا أستطيعُ نسيانَ ذلكَ أبدا.

- لا تنسَيْه إذن.. تذكّريه دومًا حتَّى لا تسمحي لوغدٍ مثلي بأن يوقعَــكِ في الخطإِ.. حسنًا.. لقد جئتُ لأصحّحَ البداية.. ربّما كانَ ما حدثَ خيرًا لنا من هذه الناحية.. إنّني هنا اليومَ لأطلبَ يدَك.. أريدُ أن أقولَ لكلِّ الدنيا: هــذه الفتاةُ هي خطيبتي.. ملكي.. تخصُّني وحدي.. أحبُّ جمالَها.. أفتخرُ بها.. أأتمنُها على عُمري.. أمنحُها كُلَّ وجداني.. كلُّ هذا دونَ أن يلومَنا أحد.. هذا هو الطريقُ المستقيم.. أرجوكِ لا تعذّبي نفسَكِ وتُعذّبيني ووافقي.

التفتتْ تنظرُ إليه في صمتٍ فقال باسمًا:

- وعلى العموم، إذا كنتِ لا زلتِ تريدينَ مُعاقبةَ نفسِك، فخيرُ عقابٍ توقعينَه عليها هو ارتباطُكِ بي!

ورغمًا عنها، وجدتْ نفسَها تضحكُ ودموعُها تسيل!

٧- مشكلةٌ جديدة

اتصلَ بي (إياد) في ذلك الوقت.. قُلتُ له وقلبي يختلج:

- هناكَ أشياءُ إذا اعتادَها المرءُ يُدمنُها.

- أعرفُ، فقد حدثَ هذا لي.

- وأيَّ شيءٍ أدمنتَ يا تُرى؟

- اعتدْتُ سماعَ صوتِ بلبلٍ رقيق، فأدمنْتُ شوقي إليه.

- سماعَ صوتِه فقط؟

- وتقبيلَ صورتِه.

- أتدركُ أنَّ عاقبةَ الإدمانِ وخيمة؟

- نعم، فقد كدْتُ أفقدُ عقلي.

- هناكَ مَن يفقدُ حريّتَه.

- لا بدَّ أنّه يكسبُ حوريّتَه.

- (إياد).. لماذا هذا اللفُّ والدّوران؟

- إنّنا نلفُّ وندورُ ونطوفُ، حولَ ما نقدّسُه ونهواه.

- إنّكَ ثعلبٌ مكّار، تجيدُ اللعبَ بالحوار.

- أنا لا ألعبُ بالحوار.. أنا أعزفُ على الأوتار.

- قافيةٌ جيّدة.

- أوحشْتِني.

- حقًّا؟

- هل تشكّين؟

- لم أسمعْ منكَ كلمةً مباشرة.

- ألمْ تقرئيها في عينيّ؟

- أتمنّى أن أسمعَها بأذنيّ.

- ولكنّها ستذوبُ على شفتيّ.

- ما أروعَها وهي تذوبُ على شفتيك.

- ستتلاشى بمجرّدِ أن تعبرَ حلقي.

- ستحتضنُها رُوحي إلى أبدِ الدّهر.

- لم أعُدْ أفهمُ النساء.

- يا سلام؟.. كيفَ وأنتَ أستاذٌ في التلاعبِ بقلوبهنّ؟

- سَحَرَتْني إحداهنّ.

- إمْ.. وكم رقمُها يا تُرى؟

- الأخيرة.

- كُنْتُ أتمنّى أن تكونَ الأولى.

- إنّنا لا نملِكُ ما ضاعَ من عمرِنا.

- [في غضبٍ تمثيليّ]: أيّها المراوغ.. إنّكَ تُناورُني حتَّى لا تقولَها.

- الكلماتُ تُهدرُ المعاني يا (سماح).

- الكلماتُ تحملُ المعاني يا (إياد).

- المعاني كالأشعّة: تنبثقُ من القلوب، وترتشقُ في القلوب.

- ولكنَّ الكلماتِ تزيدُ المعاني تأكيدا.

- لمـــاذا تُصرّينَ علـــى تحويـــلِ شـــيءٍ كبيرٍ دافئٍ لا محدود، إلى كلمةٍ واحدةٍ مُستهلكةٍ من بضعةِ أحرف؟

- لأنَّ هذه الكلمةَ هي بمثابةِ توقيــعِ عقــدِ الوفاءِ الأبديّ.. إمضاءٌ أنيقٌ بشفتيكَ على (أوتوجرافِ) قلبي.

- هل تشكّينَ في إخلاصي؟

- أبدًا ولكنْ... حسنًا يا (إياد).. هل تريدُ اعترافًا بسطحيّةِ النساءِ وتفاهتِهنَّ واستمتاعِهنَّ بالألفاظِ المستهلكة؟.. أنا أعترف.

- [مُتنهّدًا]: لا بأسَ يا حبيبتي.. وأنا أيضًا أعترف.

- [في لهفة]: ماذا قلت؟

- [صائحًا في قوّة]: يا حبيبتي ي ي ي ي.. هل تريدينَ أن أشقَّ لكِ صدري لتتأكّدي أكثر؟

- [بمرح]: يا ليت!.. على الأقلِّ حتَّى أرى إن كانَ هناكَ أحدٌ غيري.

- لا أحدَ غيرُك.

- [في عنادٍ مَرِح]: لا شأنَ لي.. أريدُ أن أتأكّد.. شقَّ لي صدرَك.

- [ضاحكًا]: اطمئنّي.. بمجــرّدِ أن دخلْــتِ قلبــي، لاذتْ كُــلُّ الحسناواتِ بالفرارِ منه في ذُعر.

- [في استنكارٍ مُصطنع]: يا سلام؟.. ماذا تعني بهذا التعبيرِ السّخيف؟

- لا لا.. أعنـــي أنّهنَّ أدركْنَ على الفورِ ألا مجالَ للمقارنة، ففَرَرْنَ من حلبةِ المنافسةِ قبلَ أنْ يُمْـــنَيْـــنَ بالهزيمةِ النكراء.

- [باستخفافٍ دالّ]: يا لكَ من مغرور!.. أتظنُّ النساءَ تتصارعُ على قلبِك؟

- لا تهمُّني إلا واحدةٌ فقط.. واحدةٌ لمْ أستوثقْ من حقيقةِ مشاعرِها بعد.

- [في دلال]: ها ها!.. انسَ يا عزيزي.. الرجالُ غيرُ النساء، ولا أظنُّهم يجرونَ وراءَ الألفاظِ المباشرةِ المستهلكة!

- [في استهـــوال]: يا إلهـــي!.. أيُّ مـــأزقٍ أوقعْـــتُ فيـــه نفســـي؟!.. [في استعطاف]: (سماح).. (سمسم).. حبيبتي.. قوليها أرجوكِ.

- [في دلال]: تُؤ!

- كلمةً واحدة.. لا.. بل.. بل تلميح.. طمئني قلبي الجريح.

- إمْ.. دعني أفكّر.. ربّمااا... غدا!

- لن أدعَكِ حتَّى تُقرّي بها.

- [ضحكْتُ في شماتة]: لن أقولَها.. ألستَ تعرفُها؟

- يحبُّ القلبُ أن يرتوي.

- وأنا ما لي؟.. ما دخلي به.

- إنّكِ تحتلّينَه كلَّه.

- إمْ.. من حيثُ المبدإ، أعتقدُ أنّه يستحقُّ بعضَ العناية، حتَّى تكونَ إقامتي به مريحة!

- أجل أجل.. كلمةٌ واحدةٌ تكفي.

- على شرط.

- هو؟

- سأغلقُ الهاتفَ بعدَها فورا.

- [في جزع]: لا لا.. أرجوكِ.. لا داعي لأن تقوليها الآن.. سأحتملُ نيرانَ لهفتي قليلا، من أجلِ ألا أحرمَ قلبي من دفءِ صوتِك.

- إنّكَ بهذا يا أستاذُ ستتسبّبُ في رسوبِنا هذا العام.

- آخّ.. نسيتُ الامتحاناتِ.. تبًّا لها.. حسنًا يا حبيبتي.. سأُضطرُّ وقلبي يتألّمُ إلى إغلاقِ الهاتف، فأنا يَهمُّــني جدًّا أن تُحرزي النجاحَ وتَحْــتَجني مآربَك.

- [على استحياء]: ستُوحشُني حتَّى الغد.

- إنّكِ توحشينني الآنَ بالفعل.. إلى اللقاءِ يا حبيبتي.

- إلى اللقاءِ.. يا حبيبي.

وأسرعتُ أضعُ السّمّاعة.

*****

هل الحبُّ يُكسبُ الوجهَ نُضرة؟

أشعرُ أنّني ازددْتُ جمالا، وأنّني أصبحتُ أحبُّ ملامحي أكثرَ لأنّه يُحبُّها!

قالَ لي مرَّة إنّني أجملُ فتاة في الكون.

لستُ ساذجةً ولكنّي أصدّقُه.. يكفي أن يراني كذلكَ بعينيه الرائعتينِ، حتَّى أُحسَّ أنّي أميرةُ الدنيا.

(رانيا) أيضًا عادَ إلى وجهِها نورُ الحياة.

إنَّ الحبَّ حقًّا أفضلُ أدواتِ التجميل!

*****

اليومَ لمْ أتحدّثْ معه كثيرًا، لأنَّ كلَّ المحاضراتِ كانت هامّة، ولم نجدْ وقتا.

ولكنَّ المهمَّ أنَّه كانَ بجواري دائما، كلّما اشتاقتْ نفسي إليه، وجدْتُه يمسُّ أناملي بأناملِه الرّقيقة، فيغمرُ السّلامُ قلبي، ويغمرُ الدّفءُ رُوحي.

*****

في الخامسةِ دقَّ جرسُ الهاتف.. أجبتُ متلهفة عله إياد، فجـــاءني صوتٌ مُتردّد:

- مرحبا.. أنا (كريم) يا (سماح).

- [بانقباض]: أهلا (كريم).. خير؟.. هل تريدُ محادثةَ (رفيق)؟

- بل.. بل أريدُ محادثَتَكِ أنتِ.

- [ازدادَ انقباضي]: إنّني أتابعُك.

- [بعدَ تردّد]: الأمرُ بخصوصِ (إياد).

شعرتُ بالتوتّر، وانقبضتْ أصابعي حولَ سمّاعةِ الهاتف، ولمْ أُحِرْ جوابا.

- في الواقع إ.. إنَّ الجميعَ قد.. قد باتوا يلاحظونَ اقترابَه الغريبَ منكِ.

- [ازدردتُ لعابي]: وماذا في هذا؟.. إنّنا أصدقاءُ منذُ فترة.. مثلُنا تمامًا.

- [في توتّر]: العَلاقةُ التي يـــراها الجميعُ لا تـــدلُّ أبدًا على مجرّدِ صدّاقة.

- [انتابني الغضب]: ولَــو يــا (كريم).. هل يُبيــحُ لكَ هذا التّدخّلَ في خصوصيّاتي؟.. إنّني فتاةٌ ناضجةٌ وأدركُ كيفَ أتصرّف.

- [في حدّة]: إنّكِ في العشرينَ فحسب، وتتصرّفينَ كمراهقة.

- [في سخرية]: مرحى للحكيمِ مَن عبرَ الستّين.. أنسيتَ أنّكَ من مثلِ سنّي؟

- لا لم أنْسَ.. ولكنّي على الأقلِّ لستُ أعمى، وأعرفُ جيّدًا مَن هو (إياد)، وما هي أخلاقُه.

- [وأنا أكظمُ غيظي بصعوبة]: (كريــم).. إنّكَ تتخطّــى حدودَك.. إنّكَ تقذفُ بالإهاناتِ حتّى دونَ أدنى تمييز.

- [صائحًا في قوّة]: أنا لا أتجاوزُ حدودي يا (سماح).. أنا أحاولُ حمايتَكِ من نفسِك.. أنتِ لا تعرفينَ إلى أيِّ حدٍّ من السّفالةِ بلغَ هذا الــ (إياد).. الكلُّ هنا يتغامزُ ويقولُ إنّكِ الفريسةُ الجديدة.

- [في ثورة]: قُطِعَتْ ألسنةُ النّمامين، مَــن يتفوّهونَ عنّي وعنه بالظّنون.. وشكرًا يا أستاذُ (كريم) على إهاناتِكَ اللطيفة.. وأرجوك: لا تحاولْ مرَّةً أخرى التّدخّلَ في شئوني، حتّى لو كانَ هذا لحمايتي كما تدّعي.. مفهوم؟

صمتَ (كريم) لحظة، قبلَ أنْ أفاجأَ به يقول:

- (سماح).. أنا أحبُّك.

ألجمتْني الدّهشة، وعقدتِ المفاجأةُ لساني، فتابع:

- ليتَكِ تعلمينَ كم أُكنُّ لكِ منَ المشاعرِ النّبيلة، وكَــم يتمزّقُ قلبي وأنا أراكِ تسقطينَ في هُــوَّةِ شخصٍ مثلِ (إياد) هذا.. أرجوكِ يا (سماح).. إ...

لمْ أدَعْه يُكملُ باقي عبارتِه.. وضعْتُ السّمّاعةَ على الفور.

فمهما كانَ تصرّفًا غيرَ لائق، فهو على الأقلِّ التّصــرُّفُ الوحيــدُ الذي كُنْتُ أستطيعُ إتيانَه في تلك اللحظة.

*****

(كريم) يُحبُّني؟؟!!

انتابتْني رغبةٌ عارمةٌ في الضحك، حينما خلوتُ إلى نفسي أفكّرُ في هذا.

(كريم شاكر) يُحبُّني؟!

لم يَبْدُ عليه شيءٌ من أمورِ المحبّينَ من قبل، وقد كانَ طويلا قريبًا منّي.. عشرةُ عمرٍ كما يقولون.

كيفَ إذن لمْ أقرأْ ذلكَ عليه؟.. هل خانتْني حاسّةُ المرأة؟.. أم أنّــه هــو الذي يدّعي الآنَ فجأةً، ليلعبَ دورًا لا أفهمُه؟

إمْ.. بدأتُ أتذكّــرُ الآنَ الكثيرَ من المواقف، التي تصــرّفَ فيهــا بطرقٍ غامضة أُرتِجَتْ عليّ، ولمْ أُلقِ لها بالا حينَها.

نظراتُه.. كلماتُه.. صمتُه.. طريقةُ معاملتِه.. كلُّها كانت غريبة.

يا له من إنسانٍ مُعقّد!

لماذا لمْ يَبُح لي بمشاعرِه من قبلُ، إذا كانت حقًّا مشاعرَ صادقة؟

لا بدَّ أنَّه يتألّمُ الآنَ كثيرًا، بسببِ الطريقةِ العنيفةِ التي أنهيتُ بها المحادثة.

أتّصلُ به الآنَ وأعتذرُ له؟

لا لا.. سيسيءُ فهمَ هذا.. سيظنُّ أنّي أتعاطفُ معه، وقد يتمادى فَيَخالُ أنّي أُبادلُه المشاعر.

هووووه.. من أينَ تنبتُ هذه المشاكلُ فجأة؟

لماذا يصرُّ (كريم) هذا على تعكيرِ صفوي وتأنيبِ ضميري؟

ضميري؟.. وأنا ما لي؟!.. أنا لم أُوحِ له بشيء، لمْ أستدْرجْهُ إلى شيء، ولم أعِدْهُ بشيء.

هو الذي يُحبُّني.. معه حقّ، فأنا بالتأكيدِ أستحقّ!

ها ها.. واللهِ جميلٌ يا (سي) (كريم).. طيلةَ عمرِنا نحسبُكَ رزينًا عاقلا، مشغولا بالثّقافة، متعاليًا على ما تُسمّيه: حماقاتِنا، ثمَّ يتّضحُ فجْأةً أنّكَ (مغرمٌ صبابة) ، تهيمُ بي عشقا!

وأنا ما لي؟.. يجبُ ألا أفكّرَ في هذا مَرَّةً أخرى.. أنا قلبي ملكُ (إياد).. (إياد).. يا له من فتى!

ولكن لماذا حاولَ (كريم) الانتقاصَ منه وهجاءَه؟.. إنَّ (كريم) معهودٌ بالصّدقِ دومًا، وهو محلُّ ثقة.. لا لا.. لقد أعمتْه الغَيْرة، فراحَ يختلقُ الكذباتِ الرخيصة، ليُبعدَني عن حبيبي.

هكذا يا (كريم)؟.. هكذا ونحنُ بمثابةِ أخوين؟

هيييه.. يبدو أنّي سأرسبُ حقًّا هذا العام.. إن لمْ يكُن بسببِ (إياد)، فبسببِ هذا المدعوِّ (كريم).

إذن فلأُنَحِّ عنّي كُـلَّ هذه المواضيع، ولْأَتفرَّغْ تمامًا لحفظِ كلمتين، حتَّى أرصَّهما في الامتحان، ربّما أستطيعُ العبورَ بأمان.

*****

ليومِ الامتحانِ دائمًا رهبة، وتزدادُ هذه الرّهبةُ إذا كـانَ أوّلَ أيّـامِ الامتحان.

وبالنسبةِ لي، كانت هذه الرّهبةُ مُضاعفةً لدرجات.

أشتاقُ إلى (إيـاد)، رغـمَ أنّه ما انفكَّ يتّصلُ بي هاتفيًّـا يوميّـا للاطمئنانِ علـيَّ وسماعِ صوتي.

وأتخوّفُ من رؤيةِ (كريم).. من رؤيةِ الألمِ على وجههِ بعـدَ مـا حدث.

أنا لا أُحبُّ مشاعرَ الذّنـب، سيّما حينـما أجدُني أحملُ جَرَّتَهـا، دونَ أنْ أقترفَ جريرتَها.

لهذا احترتُ طويلا: هل أذهبُ مبكّرةً، فربّما أصادفُ (إياد)، فأنعمُ بلحظاتٍ معه؟.. أم مُتأخّرةً قدرَ ما أستطيع، فأغنمُ لحظـاتٍ مـن المذاكرةِ الخاطفة، وأتحاشى رؤيةَ (كريم)؟

*****

اخترتُ الأولى فكانَ ما خشِيت!

أوّلَ ما لَقِيتُ، (كريم) لقيت، يتربّصُ لمقدمي وقد أقسـمَ ألا يمـرَّ الأمرُ بسهولة.

حاولتُ أن أتحاشاه، وتجاهلْتُه وأنا أخطو نحوَ مدخلِ الكلّيّة، ولكنّه اقتربَ منّي هاتفًا:

- (سماح).. لحظةً من فضلِك.

قلتُ دونما أتوقّف، ودونما أستدير، ولكنْ بقلقٍ مُستطير:

- فيما بعدُ يا (كريم).. متعجّلة.

أدركني، فأمسكَ رُسغي ليوقفَني، فاعتورتْني دهشةٌ لجرأتِه المفاجئة، واستدرتُ أواجهُه، وأنظرُ إلى يدِه حولَ رُسغي قائلةً باستهجان:

- كيفَ تجرؤ؟

أفلتني بارتباك، ولوّحَ بيدِه هاتفا:

- آسف.. آسف.. لم أقصد.. [واكتسبَ صوتُه رنّةَ إصرار] ولكن يجبُ أن تسمعيني.

- [بتوتّر]: أتعتقدُ أنَّ الوقتَ والمكانَ مناسبان؟

- [بإصرار]: لا الوقتُ ولا المكانُ عادا يعنيانني في شيء.. [وخفتَ صوتُه] كلُّ ما يعنيني هو أنتِ.. أنتِ يا (سماح).

- [احمرَّ وجهي تلقائيّا، وألمَّ بي ارتباكٌ شنيع]: (كريم) أرْ.. أرجوك.

- أرجووووكِ أنتِ.. لا تُحاولي إخمادَ الشُّعلةِ المُتألّقةِ التي تُضيءُ وجداني، بكلماتٍ لا مبالية.

- [وأنا في دوّامةٍ من الحَيْرة]: ما الذي تريدُه منّي بالضبط؟

- أريدُ معرفةَ رأيِك.

- في؟

- في مشاعري تجاهَك.

- [بعدَ لحظةِ صمتٍ حائر]: اسمعْ يا (كريم).. إنّنا أخوان، إنْ لم يَعْنِكَ لفظُ صديقين.. هذا فقط هو كلُّ شعوري تجاهَك.

- ولكنّي أحبُّكِ يا (سماح) ولن أتنازلْ عنكِ.

- ماذا تعني؟.. هل ستُجبرُني على حُبِّكَ بالقوّة؟

- [في غضب]: على الأقلِّ لن أتركَكِ تقعينَ بينَ براثنِ وغدٍ مثلِ (إياد).

- [استشطتُ غضبًا]: احفظْ لسانَــكَ يا (كريم).. أنا أحذّرُك: لو تفوَّهْتَ بكلمةٍ واحدةٍ ضدَّه بعدَ الآن، فسيكونُ لي معكَ شأن.

أطرقَ لحظةً ثمَّ قال:

- أعرفُ أنّي لستُ معسولَ الكلامِ مثلَه.. هأ!.. أرأيتِ حتَّى طريقتي الخرقاءَ في التصريحِ بحبّي لك، وأنا الذي أهيمُ بكِ، منذُ أوّلِ مرَّةٍ وقعَ بصري فيها عليكِ، في المرحلةِ الثّانويّة!

اعترتْني دهشةٌ عظيمةٌ وسألْتُه:

- أيُّ قولٍ هذا؟.. لماذا صمتَّ إذن كلَّ هذه السنينَ لو صحَّ ما تقول؟

- قد يبدو لكِ هذا حُمقــا.. ولكــنّي كُــنتُ أستوثقُ من مشاعري جيّدا.. أنتِ تعرفينَ قصصَ المراهقينَ الكثيرة.. بمجرّدِ أن تضعي الثقابَ جوارَ البنزين، تشتعلُ قصصُ حبٍّ خرافيّةٌ لا تلبــثُ أن تخــبوَ عن رمــادِ الوهــم.. [وبحزن] ثمَّ إنّني لمْ ألمحْ في عينيكِ أيّةَ مشاعرَ خاصّةٍ تجاهي.

- هذا طبيعيّ.. إنّكَ لم تفعلْ أيَّ شيءٍ تلمّحُ لي به بمشاعرِك.

- ألم تقرئي شيئًا في عينيّ؟.. كُنْتُ قريبًا منكِ باستمرار، زميلَكِ في الفصل، وصديقَ أخيكِ وزميلَه في لعبةِ (التايكوندو)، أقضي معكما في البيتِ أوقاتًا طويلة، ونخرجُ معًا في الرّحلات.

مسّني حُزنُه، ولكنّي أسرعتُ أسألُه في شكّ:

- لكنْ لماذا الآنَ بالذات؟.. ما دفعَكَ إلى الخروجِ من قوقعةِ الصّمتِ هكذا فجأة؟

- لم أكنْ لأسمحَ لأحدٍ أن يختطفَكِ منّي أبدًا يا (سماح).. مستحيل.

- [باستهانة]: وهل تأكّدتَ من مشاعركَ أوّلا؟

- [نظرَ في عينيَّ بعمق]: إنّها دائمًا أكيـــدة.. ولكنَّ عقلي وضميـــري كانا يُلجّمانِها.

- [أشحْتُ ببصري]: أنتَ تُناقضُ نفسَـــك.. منْ أدراكَ أنّكَ لستَ مُراهقًا؟

- [في حدّةٍ مُفاجئة]: لماذا تتلاعبينَ بي؟.. أجيبي سؤالي فحسب.. دعكِ أنتِ من كوني ما زلتُ مراهقًا أم نضجْت.

- [ببرود]: وأنا طرحْتُ جوابي، لكنّكَ لم تفهَمْه.. لقد تأخّرتَ كثيرًا يا فتى.. قلبي لم يعُـــدْ ملكي لأهبَه لَـــك.. لقد وهبْتُه لـــ (إياد) الذي لا يُعجبُك.. أتعرفُ لماذا؟.. لأنّه ليسَ مُتردّدًا، ويثقُ كثيرًا في مشاعرِه، ويجيدُ اقتناصَ أهدافِه، ولا يسمحُ لأحدٍ بأن يخطفَها قبلَه.. فهمْت؟

هوتْ كلماتي عليه في منتهى القسوة، فانداحتْ عيناه بـــلادًا مـــن الألم، يسافرُ فيها الحزنُ ألفَ ألفِ عام، وتحلّقُ خفافيشُ العدمِ فوقَ أحلامٍ حُطام.

ورغمَ هذا تعمّدتُ أنْ أكملَ بسخرية:

- اذهبْ يا فتى إلى كتبِكَ أوّلا، وحاولْ أن تتعلّمَ منها كلمتينِ رقيقتين، قبلَ أنْ تذهبَ إلى أيِّ فتاة، فتخاطبَها بأسلوبِكَ العنيفِ هذا، فتكرهَكَ قبلَ أنْ تعرفَك.

واستدرْتُ بحدّة، وتركتُه خلفي واثقةً بأنّه لن يُفكّرَ في محاولةِ اعتراضي بعدَ ذلك أبدا.

وأسرعتُ أرتقي السّلّم، فصادفتْني (صفاء).

لم تتفوَّهْ إحدانا بكلمة.. فقط تبادلْنا النظراتِ في صمت.

وفي عينيها لمحْتُ نظرةً عجيبة.. مُركّبًا من السخريةِ والغضبِ والغيرةِ والاستهتار.

بادلْتُها النظراتِ في تحدٍّ، وحاولتُ أن أضعَ فيها أكبرَ قدرٍ ممكنٍ من الشّماتةِ والثّقة، وكأنّي أقولُ لها:

- (إياد) ملكي الآن.. تعسًا إذن للخاسرين.

وأسرعْتُ بعدَها أواصلُ طريقي، في إحساسٍ شرّيرٍ، بتحطيمِ شخصينِ هزيلين!

٨- معا

الامتحاناتُ الامتحانات.

لا أجدُ وقتًا، حتَّى للاعتناءِ بمظهري كأنثى، حتَّى بتُّ أفرُّ من النظرِ في المرآة، خُشيةَ أن تظهرَ لي (أمُّنا الغولة)!

العجيبُ أنَّ كلَّ فتياتِ الجامعةِ يظهرنَ في أيّامِ الامتحاناتِ أكثرَ بهرجةً وزينةً وأناقةً عن الأيّامِ العاديّة.. من أينَ يجدنَ الوقت؟.. لا أدري!

يبدو أنّي سأقتنعُ أخيرًا ــ كما اقتنعْتُ في كلِّ امتحانٍ سابق ــ أن تنظيمَ الوقتِ والمذاكرةَ أوّلا بأوّل، خيرٌ من تراكمِ الأعباءِ آخرَ أمر، ومِن الوسائلِ الملتويةِ للغشّ، والتي على فكرة، لاقتْ تطوّرًا كبيرًا هذه الأيّام.

*****

هووف.. لا أدري ماذا يريدُ منّا هذا الدكتورُ بالضبط؟.. من أينَ أتى بهذا الامتحانِ السخيفِ اليوم؟.. ربُّنا يَستُر.

*****

أخيرًا.. أخيرًا.

لا أصدّقُ أنَّ هذا الكابوسَ قد انتهى أخيرا.

أريدُ أن أتفرّغُ بكاملِ عالمي، لما يحدثُ بيني وبينَ (إياد).. تعسًا.. لماذا تصرُّ اللغةُ على وضعِ الكثيرِ من الأدواتِ بينَ اسمي واسمِه؟

ولكنّي أوّلا يجبُ أن أقضمَ قضمةً كبيرةً من شطيرةِ النومِ المحـــلاةِ بالرّاحةِ والدَّعَة، والأحلامِ الوادعة.

كم أنا جائعةٌ للنوم.. هووووم.

وداعًا الآنَ يا أوراقي فأنا أ.. تـــ.. ســـ.. ـــا.. قـَـ.. ط.

*****

اتصلَ بي (إياد) منذُ ساعتين، وسنخرجُ غدًا في نزهةٍ لطيفة.

معًا.. أخيرًا بمُفردِنا.

*****

قابلتُ (إياد) داخلَ الجامعةِ في العاشرةِ صباحًا، قبـــلَ أنْ ننطلـــقَ بسيّارتِه، وقد ولّيتُ وجهي شَطْرَه، وغرِقْتُ في وسامتِه.

سألتُه، فقط لأستمتعَ بلذّةِ الحديثِ معه:

- إلى أين؟

- الأهرامات.. الحديقةِ الدوليّة.. القناطر.. أيِّ مكانٍ يخطرُ ببالِك.

- إنّكَ متحمّسٌ جدّا.

- أريدُ أن نطوفَ الكونَ كلَّه.. وكما استكشفتُ نفسي معك، أريدُ أن أستكشفَ كلَّ شيء.

- قل لي أوّلا: كيفَ وجدْتَ نفسَكَ معي؟

- بصراحة: لقد أصابني الغرورُ ــ بل النرجسيّة، فقد أحببْتُ نفسي حبًّا جمًّا لمّا وجدْتُكِ تحبّينَها.

- [في دلال]: أحبُّها؟.. من قالَ هذا؟

- [كشّرَ عن أنيابِه في غيظٍ تمثيليّ]: أيّتُها القطّةُ العنيدة.. لا تجبريني على انتزاعِ اعترافٍ منكِ بالقوّة.

- [بتحدّي]: حاولْ لو استطعْت!

- هكذا؟

ومالَ عليَّ فجأةً، واختطفَ قُبلةً سريعةً لشفتيّ، قبلَ أنْ يعودَ لقيادةِ السّيّارة.

تصاعدَ الدمُّ إلى وجنتيّ، وخفقَ قلبي خفقاتٍ سريعةً مُلتهبة.

ولكنّي لم أنسَ لحظةً أنّنا في سيّارتِه، وسْطَ الشارعِ المزدحم، حتَّى لقد شعرتُ أنّ كلَّ مَن بالسّيّاراتِ المجاورةِ قد شاهدَ مــا حــدث، وراحَ يسلُخُني بنظراتِه، ما بينَ مُتغامزٍ عابث، ومُحتقِــرٍ مُــزدرٍ عابس.

ولهذا بذلتُ جُهدًا خارقًا، لأسيطرَ على أنفاسي اللاهثــة، وأقــولَ بوجهٍ مُحتَقِن:

- لماذا فعلْتَ هذا؟

- [في ثبات]: لأنّي أحلمُ به دائما.

- ما كانَ يجبُ أن تفعلَه، ونحنُ وسْطَ الطريقِ العامّ.

- [يمكر]: الحظرُ إذن على الطريقِ العامِّ فقط!

أحنقني جوابُه، فقلْتُ في حدّة:

- أعتقدُ أنّ أسلوبَكَ وقحٌ بعضَ الشيء!

تجهّمَ وجهُه، وقالَ بجدّيّة:

- أنا آسف.

سادَ الصمتُ لحظات، وكلانا لا يُلقي طَرْفَه صوبَ الآخر، حتّـــى سألَني بغتة:

- هل أنتِ مُتضايقة؟.. تحبينَ أن نعود؟

صمتُّ لحظةً مُتحيّرة، فأوقفَ السّيّارةَ على جانبِ الطريق، والتفتَ إليَّ قائلا:

- (سماح).. أنا آسف.. لمْ أكنْ في وعيي حينما فعلْتُ ذلك.. ولكنّكِ تحملينَ جزءًا من المسئوليّة.

- [في دهشةٍ مستنكرة]: أنا؟!

- جمالُكِ حرّضني.. إنّه شريكٌ في الجريمة.

ابتسمتُ رغمًا عنّي، فأعادَ تساؤلَه:

- هل أعيدُكِ إلى المنزل؟

قلتُ وأنا أحاولُ اصطناعَ الصرامة:

- يمكننُي أن أتغاضى عمّا حدث إذا...

- [بلهفة]: إذا ماذا؟

- [بحزم]: إذا وعدْتَني ألا يتكرّرَ ما حدث؟

- [عقدَ حاجبيه]: يا له من مطلبٍ قاسي!.. كيف تمتلكينَ شفتينِ بهذا الجمالِ ولا أفقدُ صوابي أمامَهما؟

أطربني غزلُه وداعبَ أنوثتي، فأشحْتُ بوجهي حتَّى لا يلمحَ الابتسامةَ التي تسلّلَتْ إليه، وقلت:

- هذا هو شرطي!

- [تنهّد]: ما باليدِ حيلة.. موافق.

التفتُّ إليه، فوجدْتُه ينظرُ إليَّ في أسى، فابتسمْتُ قائلةً:

- إيه.. ما لك؟.. هيّا بنا.. أم تريدُ تضييعَ اليومِ هباءً؟

وابتسمَ في استسلامٍ، قبلَ أنْ يعاودَ الانطلاق.

*****

منَ الثّواني صنعْنا عُمرا.. من وجودِنا معًا صنعْنا بهجة.

انطلقْنا في فضاءِ الحُلم، نُحيلُ رموزَ الواقعِ إلى أحلى حُلم.

أعينَ الناسِ.. ابتساماتِ الأطفالِ.. اختيالَ المباني.. ضجرَ السيّارات..

من كلِّ شيءٍ أخذنا قطرة، وفي رُوحِنا مزجْنا أحلى رحيقٍ لأحلى حياة.

ابتسمْنا.. ضحكْنا.. جرينا انْطلقْنا.. أخذنا نَعُبُّ في رئتيْنا من أنفاسِ الدنيا العَطِرةِ حتَّى تعبْنا.. وحينَ تَعِبْنا، تعانقَتْ أكفُّنا وذُبْنا.

من دِفءِ أحدِنا يستمدُّ الآخرُ طاقَتَه، وفي نبعِ الحبِّ بقلبِه يغسلُ تَعَبَه.

قالَ لي "أحبُّكِ" بكلِّ لمحةٍ فيه: بصوتِه وصمتِه.. بوسامتِه وسماتِه.. بأنفاسِه ونبضِه.. بسيْرِه وركْضِه.. باحتضانِه الدنيا واحتضاني بعينينِ لا تعرفانِ القناعة، تريدانِ امتلاكَ كلِّ شيء، والاستمتاعَ بكلِّ شيء.

وأنا قلْتُ لَه "أحبُّكَ" بكِياني كلِّه: بفَرَحي ومَرَحي.. بقلبي ولُبّي.. بخَطوي ودَرْبي.

كُنْتُ أحلّقُ معه في كلِّ مكانٍ نروحُ إليه، لا نكادُ نستقرُّ في بُقعة، لأنّي وَدَدْتُ أن أغرسَ في كلِّ بُقعةٍ نبتةَ وجودِنا معا.. إحساسَ وجودِنا معا.. عَقْدَ وفاءٍ أبديّ، مِدادُه الأحداثُ ورُقعتُه الأماكن.

أردْتُ أن نطوفَ الدّنيا، لأنَّ (الآنَ) لا يُضحي (أبدا)، واللحظةَ المجنونةَ تنطوي في جوفِ التي تليها.. فإذا جاءَ الغدُ، فماذا سيبقى من الأمسِ غيرُ الذّكريات؟

والذّكرياتُ تنطمس، ولا بدَّ لها من مِفتاحٍ ليُخرجَها من صناديقِ الإهمالِ والنّسيان.

لهذا أردنا أن نمرَّ على كلِّ مكان، حتَّى إذا مَرَرْنـــا عليـــه مـــرَّةً أخرى، غدًا أو بعد غد، قريبًا أو بعدَ دهر، استوقفَنا ليحكـــيَ لنـــا ذكرياتِنا معا.. ليُقرأنا عَهدَنا المكتوبَ بمدادِ السّعادةِ علـــى أنحـــاءِ تضاريسِه.

*****

قالَ لي وهو يلهثُ مُتساقطًا أرضًا على العُشبِ الأخضر:

- آه.. إنّكِ تفورينَ بالحماس.. ألا تتعبينَ أبدا؟

- [ضحكْتُ وجلَسْتُ بجوارِه]: التعبُ كالحزن: لا نذكرُ أحدَهما إلا مُنفردين.

- ما هذا؟.. فيلسوفةٌ أنتِ؟

- بل عاشقةٌ أتحدّثُ بقلبي، والفلسفةُ تنبعُ من العقل لا من القلب.

- كلامُكِ هذا يُثبتُ أنَّ لقلبِكِ (عقلا) حكيما!

- [ضاحكةً]: حسنًا يا فيلسوفي.. كفانا فلسفةً، ودعْنا نَعُدْ توًّا إلى سطحيّةِ الواقع.

- لم يَعُدِ الواقعُ مُسطّحًا يا (سماح).. ألسنا معا؟.. ألسْنا نُكسبُ كلَّ شيءٍ بُعدًا وعُمقًا وحسًّا وتاريخا؟

- [وأنا أتيهُ فيه]: إنَّ لكلامِكَ لسحرًا عجيبا!.. كأنّي أراه يتحقّقُ ويستحيلُ دنيا.

- [وهو يحتضنُ يدي]: إنّه دُنيا بالفعلِ، أراها في عينيكِ.

وقبّلَ يدي برقّة، فارتجفْتُ وأسرعْتُ أسحبُها قائلةً بارتباك:

- هاه.. وبَعد؟.. هل ستعودُ إلى ما نُهيتَ عنه؟

- [في اعتراض]: ولكنْ يا حبيبتي لقد اتّفقْنا بخصوصِ الشّفاهِ لا الأنامل؟

مَطَطْتُ شفتيَّ باسمةً دونَ أن أُعقّب، فابتسمَ قائلا:

- حسنًا.. المهمُّ ألا أُفاجأَ في حينٍ من الأحايين، بفرمانٍ تعسّفيٍّ جديد، يحرمُني منَ النظرِ في روعةِ عينيكِ!

وضحكنا معا في مَرَح.

٩- الرقصُ مع الذّئاب

هتفتْ (رانيا):

- خطأ.. أكبرُ خطأ.

كُنْتُ عندَها، لنتشاورَ في أمرِ خِطبتِها إلى (رفيق)، وترتيباتِ إقامتِه الخميسَ القادم، حينما قصَصْتُ عليها تفاصيلَ نزهتي مـــع (إيـــاد) فأزّرتْها بتلك العبارة.

سألتُها باسترخاء:

- وما الخطأُ في ذلكِ أيّتُها الحصيفة؟

- [بحزم]: انبغى أن تعودي فورًا، إثرَ مُحاولتِه تقبيلَك.

- [بلهجةٍ حالمة]: محاولتِه النّاجحة؟

- [بغيظ]: حتَّى لو كانت فاشلة.. كانَ يجبُ إيقافُه عندَ حدِّه.

- لقد حدث.

- لا يكفي.. كانَ يجبُ أن تُشعريه أنَّ ضريبةَ مثلِ هذه المحاولةِ باهظة، حتَّى لا يفكّرَ في إعادةِ الكرّة.

- [غمزتُ لها]: ومَن قالَ إنّي أريدُه أن يكفَّ عن محاولاتِه؟!

نظرتْ لي بدهشة، فأردفْتُ وأنا أستلقي فوقَ فراشِها:

- أنا أريدُه فقط أن يُحسنَ اختيارَ الزمانِ والمكان.

- [بصرامة]: ومتى يكونانِ في نظرِك؟

- ....!

- أعني أنَّ ذلكَ لا يتوفّــرُ إلا حينمــا تكونينَ معه بمفردِكما بمعزلٍ عن الناس.. في شقّتِه مثلا!

انتفضْتُ جالسةً، وأنا أقولُ بغضب:

- (رانيا).. ماذا تقولين؟

- [بحدّة]: أقولُ إنّكِ رفضتِ أن يفعلَ ذلكَ في سيّارتِه لأنّه علنيّ.. هل لدى سيادتِكِ إحداثيّاتٌ أخرى مُلائمة؟

- [بارتباك]: إ.. تعرفينَ أنَّ ظروفًا كهذه تتوافرُ أحيانا.. في بعضِ الأماكنِ داخلَ الجامعةِ نفسِها مثلا!

- [زفرتْ]: للأسفِ يا (سماح).. إنَّ لديكِ ضميرًا، ولكنّه مجرّدُ ضميرٍ اجتماعيّ.. أنتِ تخجلينَ من الناس، وليسَ من الخطإِ نفسِه.. أعتقدُ أنّكِ بحاجةٍ إلى مراجعةِ أخلاقِك.

- [بغضب]: ألا تَرينَ معي، أنّكِ صرتِ حنبليّةً جدًّا هذه الأيّام؟

- (حنبليّةً) قطعةً واحدة؟.. إنّني أنتقدُ تصرّفًا، أنتِ نفسُكِ تخجلينَ منه أمامَ الناس!.. إنّني لم أتكلّمْ بعدُ في الحلالِ والحرام.

- إنَّ ما نتجادلُ بشأنِه لم يقعْ بعد.

- ولكنّكِ ترحّبينَ بوقوعِه.. أناقشُ المبدأ.

نهضْتُ كالعاصفةِ هاتفة:

- وأنا يكفيني ما ناقشناه بالفعل.. سلام.

- إلى أين؟.. لا تهرُبي هكذا قبلَ أنْ نحسمَ الأمور.

- [باستهانة]: أيّةُ أمور؟.. إنّني عاقلةٌ يا حبيبتي، وأستطيعُ حسمَ أموري بنفسي.

- [في تهديد]: إذا لمْ تجلسي يا (سماح)، فسأُضطرُّ إلى إخبارِ أخيك.

نظرتُ لها في انصدام، وقلتُ بعينينِ متّسعين:

- إلى هذه الدّرجةِ تغيَّرْتِ يا (رانيا)؟؟!.. تُهدّدينني بإفشاءِ أسراري؟

- [بثبات]: إنّني صديقتُك، ومن حقِّكِ عليَّ أن أحميَكِ قبلَ أنْ تنزلقي في الخطإ.. [وأمسكتْ كتفي برفق] (سماح): إذا لم تخافي منَ الله، فخافي من سوءِ السّمعة.. خافي حتّى من (إياد) نفسِه، فلو اعتقدَ أنّكِ فتاةٌ سهلة، فسيتسلّى بكِ إلى أبعدِ مدى، قبلَ أنْ يُلقيَكِ إلى كومةِ مَن قبلَك.

- ما الذي يعنيه هذا بالضبط؟

- يعني أنّنا نعـــي جيّدًا أنَّ (إياد) شابٌّ لعوب، وأنّكِ لستِ الأولى في تاريخِ مغامراتِه.. فإذا أردتِ أن تكوني الأخيرة، فعليكِ أن تكوني مختلفةً عمّن سبقْنَك.. أتعرفينَ معنى مُختلفة؟

- ما؟

- معناها أن تكوني بعيدةَ المنال.. ثمـــرةً ناضجةً على شجرةٍ باسقة، عليه أن يتسلَّقَ ويتكبّدَ ويتجشّم ليقطفَها.. لا أن تكـــوني ثمرةً متساقطةً، إن انحنى ليلتقطَها ساعةً، فسَرعانَ ما سيأنفُ منها ويشكُّ في صلاحيّتِها.. هل فهمتِ ما أعنيه؟

- [بتوتّر]: لماذا يُردّدُ الجميـــعُ مثـــلَ هذا الكـــلامِ عـــن (إياد)؟.. لماذا تصوّرونه كذئبٍ ينهشُ أعراضَ النساء؟.. أنا لا أراه أبدًا هكذا.

- هذا ما أحاولُ تنبيهَكِ له.. إذا كانَ رأيُ الجميعِ عنه هكذا، فلا بدَّ أنَّ هناكَ مسًّـــا مِـــنَ الحقيقةِ في كلامِهم.. حتَّى أساطيرُ الشّعوبِ لا بـــدَّ لها من واقعٍ ملموسٍ تنبني عليه.. وكما يقولون: لا دخانَ بدونِ نار.

- [تسرّبَ القلقُ إلى نفسي]: ولكنّه رقيـــقٌ يا (رانيـــا).. أروعُ إنسانٍ في الدنيا كلَّها.. ألا تعلمينَ كم أحبُّه؟

- المهمُّ هو: كم يحبُّكِ هو.

- [هاتفةً]: يحبُّني بجنونٍ يا (رانيا).. كلماتُه ونظراتُه، حركاتُه وسكناتُه توحي كلُّها بذلك.

- الزمنُ وحدَه هو الذي يستطيعُ تأكيدَ أو نفيَ هذه (الإيحاءات).. وإلى أن يكــونَ ذلك، لا بدَّ أن تظلّي أنتِ كمــا أنتِ: طاهرةَ الذّيلِ عفيفةَ الإزار، لا يمسُّ سمعَتَكِ شيءٌ، لمسةً كانَ أو قبلة.. لا تقدّمي أيةَ تنازلاتٍ حتَّى لا تجني أيّةَ خسائر.. هل هذا واضحٌ يا (سماح)؟

- [شردْتُ ببصري]: معكِ حقٌّ يا (رانيا).. معكِ حقّ.

- [يحزم]: تذكّري: ولا قبلةٌ، حتَّى لأناملِك.

- [تنهّدتُ]: سأحاول.. [ثمَّ نظرتُ لها بغيظ] تبًّا لك!.. لماذا بذرتِ كلَّ هذه الشكوكِ الطفيليّةِ بينَ رَيْحانِ سعادتي؟

- [هزّتْ كتفيها]: لأنّي أُحبُّك.. ولأنّي أمقتُ اطمئنانَ الشّاةِ لطيبةِ الذّئب.. [وغمزتْ بعينِها] إلا في حالةٍ واحدة.

- .....؟

- [أشارت إلى أصابِعِها]: حينما يُعلنُ الذّئبُ عن سلامةِ نواياه، ويسلكُ الطرقَ المشروعة.

- تعنينَ أن يتقدّمَ للخِطبة؟

- لا حلَّ غيرُ هذا وما دونَه فَعبَث.. (إياد) قادرٌ ماديّا على التّقدّمِ لخطبتِك، ولكنّه لم يُلمّح مجرّدَ تلميحٍ لانتوائه ذلك.

- إنّنا في بدايةِ تعارُفِنا.

- لا بأس.. انتظري إذن حتَّى يطولَ تعارُفُكما.. ولكنّي أريدُكِ أن تستدرجيه بمكرِ أنثى، لتعرفي ماذا يُضمرُ في نواياه.

- [يقلق]: وإذا لم يكنْ ينتوي التقدّمَ لخِطبتي.. الآنَ على الأقلّ.. أعني أن يتعلّلَ بإكمالِ الدراسةِ مثلا؟!

- في هذه الحالةِ لا تُطيلي من كونِكِ أداةً جميلةً لتسليتِه وإمتاعِه!

- [باستنكار]: أقطعُ صلتي به؟.. مستحيل.

- لم أعْنِ ذلك.. لكن أوقفي العلاقةَ عندَ حدودِ الزمالة.

- ولو اعتبرَ هذا جفاءً وابتعدَ عنّي؟

- ملَّ اللعبَ بدُميتِه، وزهدَها وقرّرَ البحثَ عن غيرِها.

- [هززْتُ رأسي نفيًا]: لا.. (إياد) ليسَ كذلك أبدًا.

قالتْ (رانيا) في حسم:

- إنّنا ندرسُ الاحتمالاتِ لنخطّطَ للمستقبل.. لا نريدُ اليومَ خمرًا والغدَ بكاءً مُرّا.. كوني على حذرٍ يا (سماح)، فاللعبُ هذه المرّةَ مع (إياد).. و(إياد) ليسَ سهلا.. ليسَ سهلا أبدا.

*****

اعتراف: ذابَ كلامُ (رانيا) في محاليلِ النسيانِ تمامًا، بمجـــرّدِ أن رأيتُه.

نعم تركتُ له أناملي ليحتضنَها، وكذلكَ ليمسَّها بشفتيه الرقيقتين.

نعم ضَحِكْنا، ومَرِحْنا، وواصلْنا استكشافَنا للدّنيا الجديدةِ التي وُلدتْ بنا معًا.. لنا معًا.. فينا معًا.. معًا معًا.

الحبُّ يساوي الثّقةَ المُطلقة، والشّكُّ يساوي الجحيم.

وأنا ألقيتُ كِياني في حُبِّ (إياد)، فانطلقَ يُبحرُ إلى مدى الآماد.

وسواءٌ كانَ ما قالوه عنه صدقًا أم كذبا، فإنّني لن أحكـــمَ إلا بمـــا أراه.

صحيحٌ أنَّ جبلَ الجليدِ لا يطفو منه إلا أقلُّ مـــن ربعِـــه، ولكنّـــي مصرّةٌ على التعاملِ مع مـــا أرى، علـــى أن أغـــوصَ تـــدريجيًّا لاستكشافِ ما لا أرى.

يَعْ!.. ما الذي ألقى في رُوعي مُصطلحَ (جبلِ الجليدِ) هذا لأشبّهَ به (إياد)؟

هو جبلٌ حقًّا، أراه شامخًا مهيبًا، يبلغُ ذُروةَ آمالي، ويُناطحُ سَحابَ تطلّعاتي، ويُشرفُ على مَدى جنّتي.. ولكنّه أبدًا ليـــسَ جليديّا.. إنّه جبلٌ من النور.. من الدفء.. لو شئتِ حتَّى: مـــن النـــار.. مـــن اللهيب.. من الشوقِ المحموم.

ما أنآه أنآه عن جبلٍ من الجليد!

*****

سألني (إياد)، ونحن نفترشُ أرضيّةَ إحدى الحدائق:

- (سماح): هل أطلبُ منكِ شيئًا.

- أيُّ شيء؟

- أريدكُ أن تُهدهديني كطفلٍ صغير.. تضعيَ رأسي على ركبتِك، وتُداعبي شعري بأناملِكِ الرقيقة.

لفحتِ النيرانُ وجنتيّ، واخرنبقْتُ صامتةً تمامًا، فهمس:

- أريدُ أن يسري إحساسُ الدفءِ في رُوحي.

- [بارتباك]: ولكنَّ هذا لا يصحّ.. إنّنا في مكانٍ عام.

- أنتِ تتحلينَ أعذارًا وهميّةً واهية.. انظري حولَك.. إنّنا نرى هذا كثيرًا، ولا أحدَ يعترضُ أو يستنكر.

وبدونِ إضافة، استلقى على الأرضِ وأسندَ رأسَه على ركبتي، وأغمضَ عينيه في تراخٍ، وملامحُه تحملُ بشاشةً هادئة.

دقّ قلبي، وفي تردّدٍ وجدْتُ أناملي تتلصّصُ حتَّى شعرِه، فَرُحْتُ أداعبُ خُصلاتِه الناعمةَ في بُطْء.

غمرني ذلكَ بإحساسٍ عارمٍ بالحنان، كأنّه طفلي الذي أناغيه حتَّى يغفو.

ولكنّي لم أكُن مُستريحة.. هناكَ شيءٌ خاطئٌ بالتأكيد.

إلا أنَّ المقاومةَ كانت مستحيلة.

*****

قالتْ (رانيا) ببرود:

- آسفةٌ يا (سماح).. أنا مُضطرّةٌ إلى إخبارِ (رفيق).

عقدتُ حاجبيَّ وأنا أُدمدم:

- هل أصبحتْ هذه الجملةُ السخيفةُ لبانةً في فمِك، تلوكينَها كلّما رأيْتِني؟

- [في حدّة]: أعدُكِ أنّها آخرُ مرَّةٍ أقولُها، لأنّي بالفعلِ عازمةٌ على تنفيذِها.

- [في أسف]: يا خَسارة!.. لم أكنْ أظنُّكِ ستتنكّرينَ لصداقتِنا بهذا الشّكل!

- [بتهكّم]: أتتكّرُ لصداقتِنا؟.. ليتني!.. ما كنتُ لأنفعلَ لتصرّفاتِكِ الخرقاءِ هذه التي تكاد تُصيبُني بالشّلَل!.. ثمَّ تعالَيْ هنـــا.. لماذا تخافينَ هكذا من أن أُخبرَ (رفيق)؟.. ألمْ تفعـــلي ما فعلْتِ علنًا، في حديقـــةٍ عامّةٍ عيانًا نهارا جهارًا، وعلى رءوسِ الأشهاد؟.. لماذا تفترضينَ أنَّ أحدَ معارفَكِ لمْ يَرَك؟

- لا.. لَلْ.. لا أعتقدُ أنَّ أحدًا قد رآني.

- [بسخرية]: أحدًا يعرفُك؟!!

- [خفضتُ بصري]: لم يكُن حولَنا الكثيرُ من الناس.

- [بقسوة]: تخيّلي فقط موقفَك، لو رآكِ أحـــدُ معارفِك.. أو.. أو لو رآكِ بعـــضُ صبيةِ المرحلـــةِ الإعداديّةِ أو الثانويّةِ

المراهقين، فَــراحوا يتندّرونَ عليكما، وجعلوها فَضيحة!.. ألا يحدثُ هذا؟.. ماذا كانَ سيُضحي موقفُكِ حينَها؟.. ألم تفكّري في هذا بتاتًا؟

- ف.. في الواقعِ لمْ.. لم يَرِدْ ذلكَ على بالي مُطلقا.

- [بصرامة]: بَقِيَ أن أقولَ لكِ شيئًا واحدًا يا (سماح)، هو رأيي الشّخصيُّ فيمن أراهم يفعلونَ ذلك.. الازدراءُ يا (سماح).. الاحتقار.

خفضْتُ بصري في إحساسٍ شنيعٍ بالعار، وطفَرَتِ الــدّموعُ مــن عينيّ، ولكنّ ذلك لم يمنعِ الغضبَ العنيفَ الذي راوَدَنــي مــن أن يجعلَني أقول:

- هكذا يا (رانيا)؟.. هكذا صارَ رأيُكِ فيّ؟.. أعتقدُ أنّكِ بهذا قد وضعْتِ فصلَ الختامِ على عَلاقتِنا.

وحاولْتُ أن أندفعَ مغادرةً حُجرَتَها، ولكنّها اعترضتْني في حــزم، وأجبرتْني على النظرِ في عينيها، وهي تقولُ بصرامة:

- هذه الأساليبُ لن تدفعَني إلى التّعاطفِ معــك.. إنّكِ تشعرينَ بالخطإِ في أعماقــكِ ولكنّكِ تُكابرين.. اجلسي مرَّةً أُخرى واسمعيني بتعقّل، فأنا لمْ أنتَهِ ممّا لديَّ بعد.

وأجبرتْني على الجلوسِ مرَّةً أخرى، وأمسكتْ كتفيَّ ونظرتْ فــي عينيَّ وقالتْ:

- أنتِ لمْ تفهمي الكلامَ الذي قلْتُه لكِ المرّةَ الماضيةَ جيّدًا.. حسنًا.. سأقولُ لكِ ما بداخلي بصراحة: أنا الآنَ ينتابُني شكٌّ عنيفٌ في (سماح) التي أعرفُها.. (سماح) المهذّبةِ المؤدّبةِ التي صادقْتُها وأحببْتُها بكلِّ كِياني.. بصراحة: يجبُ على الفتاةِ أن تُحسنَ اختيارَ صديقاتِها، حرصًا على سُمعتِها هي.. لهذا سأقولُها لكِ مباشرةً يا (سماح): إذا كُنْتِ ستتمادَيْنَ في تنازلاتِكِ لـــ (إياد)، فأنا لسْتُ مستعدّةً للتّستّرِ عليكِ مرَّةً أخرى.. فإمّا أن أقطعَ عَلاقتي بكِ نهائيًّا، وهو شاقٌّ على نفسي، وإمّا أن أُخبرَ أخاكِ أو والديكِ، حتَّى أخفّفَ من عبءِ ضميري.. مفهوم؟

انتابني سخطٌ عنيف، فأزحْتُ يديْها عنّي صارخةً:

- اللعنة!.. كيفَ تجرئين على قذفي بهذه الكلماتِ الشنيعة؟.. هل صرتُ في نظرِكِ فتاةً سيّئةَ السمعةِ إلى هذه الدرجة؟

- [في حسم]: اذكري لي تعريفَ الفتاةِ حسنةِ السّمعةِ أُجبْكِ عن سؤالِك!

- [عقدّتُ حاجبيَّ بقوّة]: لا يا (رانيا).. لقد صرتِ شنيعة.

- [في ثبات]: واجهيني إن اسطَعْتِ.. انظري في عينيَّ وقولي لي بصوتٍ قويّ: "(رانيـــا).. أنا (سمـــاح) التي تعرفينَها".. قُـــولي لي بثقـــة: "(رانيا).. أنا ضميري مرتاحٌ، وأحبُّ كلَّ ما أفعلُه".. هيّا افعليها.. هيّا.

نظرْتُ في عينيها بتحدٍّ، ولكنّي لمْ أقْوَ على مواجهةِ نظراتِهـــا، ولا حتَّى شفتايَ قويتا على التمتمةِ بما أرادتْ، فأشحْتُ ببصري عنها، والدموعُ تنهمرُ من عينيَّ في صمت.

وفي صمتٍ أيضًا، وجدْتُ (رانيا) تحتضنُني وهي تتنهّــدُ تنهيــدةً حارّة.

١٠- الرجلُ الشرقيّ

جلسْتُ شاردةً بمفردي، أجوبُ مجاهلَ الفكرِ حائرةً في الحبّ.

هل (إياد) سيّءٌ كما يقولون؟

لا لا.. إنّه رقيقٌ، شاعرٌ، فيلسوفٌ، (روميو)، قالبٌ من الرّ قّــة..

أيُّ شيءٍ غيرَ محتال.

وأنا أحبُّه.. نائيًا عنّي أحببْتُه.. مُيمّمًا شطرَ غيري أحببْتُه.. حتَّى لو كانَ يتسلّى بي، فهل أملِكُ غيرَ أن أحبَّه؟

إنَّ حبَّ (إيــاد) قَــرارٌ فرديٌّ منّي.. حتَّى لو رفضَه هو.. حتَّى لو همّشَه أو هشّمَه.. أنا أحبُّه.

انتزعني رنين هاتفي المحمول، وظهر على شاشــته اســم إيــاد، ففتحت الخط أهتفُ بطبقةٍ هامسة:

- (إياد).

قالَ في شوق:

- أوحشْتِني أوحشْتِني.. أريــدُ أن أردّدَها كجهــازٍ أحمق، لولا أشتاقُ لسماعِ صوتِك.

- وأنا كذلك.. ماذا تفعلُ الآن؟

- أُكلّمُك!

- يا مكّار!.. وقبلَ أنْ تُكلّمَني؟

- كُنْتُ أحلمُ بأن أُكلّمَك!

- [بدلال]: (إياد)!

- عيونَ (إياد).

صمتُّ والنشوةُ دَمي، فسألني:

- هَه.. متى أراكِ؟

- ألا يكفيكَ أن تسمعَ صوتي؟

- رؤيَتُكِ شيءٌ آخرُ يا فتاة.. كم أوحشَتْني عيناك!.. كم تصيبانني بالحَيْرة!.. هناكَ شيءٌ عجيبٌ فيهما لا أدري كُنهَه، يجعلُ قلبي يخشعُ ويرتجف، ويمنحُ كِياني سعادةً محلّقة.. شيءٌ يجعلُني مشدودًا إليهما لا أريدُ أن أبارحَهما.

- [مُداعبةً]: دعنا نأمل أن يظلَ هذا الشيءَ غامضًا مُستغلقًا عليك، فأنا أخشى لو عرفْتَه يومًا، أن تزهدَ فيه وتسخرَ من تفاهتِك!

- مُحال.. عيناكِ مستودعٌ للأسرار، التي يحتاجُ اجتلاؤها إلى خوضٍ مستمرٍ في مجالي روعتِهما العميقة.. يا لكِ من فتاةٍ ذاتِ عينينِ مُحيّرتين!

أسكرتْني كلماتُه العذبةُ فصمتُّ، حتَّى عاد يسأل:

- (سمسم).. لم تقولي متى أراكِ غدا؟

- في الواقع.. هذا غيرُ ممكن!

- [بجزع]: لماذا؟.. أليسَ بيننَا ميثاق؟

- بلى.. ولكنْ.. أنتَ تعرفُ يا (إياد) أنَّ...

- أنَّ ماذا؟.. تكلّمي مباشرةً يا (سماح).

- كلامُ الناسِ يا (إياد).. لا أستطيعُ أن أخرجَ معكَ كلَّ يومٍ بمفردِنا.

- [بضَيق]: ثانيةً كلامُ الناس؟.. يا عزيزتي أ...

- [بعتابٍ مستنكر]: عزيزتي؟.. ما هذا المصطلحُ السخيف؟

- متأسّفٌ يا تاجَ رُوحي.. يا بلسمَ جروحي.. يا جَفني القريح.

- [متضاحكةً]: ما معنى (جَفني القريحِ) هذه؟

- معناها أنّي لا أنامُ الليلَ من فرطِ تفكيري فيكِ، حتَّى تقرّحَ جَفني وتورّمَ من شدّةِ السهر.. لهـــذا جعلتُكِ مُعادلا موضوعيًّا لجفني القريح، للتلازمِ السّببيِّ بينَ...

- [في هلع]: أرجوكَ ارحمني.. لم أصدّقْ بعـــدُ أنَّ الامتحاناتِ قد انتهت!.. (عزيزتي) ممتازةٌ للغاية!

- [برجاء]: ليتكِ بالمرّةِ تتركيننا من كلامِ الناسِ هذا.

- حتَّى لو كانَ هؤلاءِ الناسُ أهلي.. أمّي وأبي وأخي؟

- نحنُ لا نرتكبُ شيئًا خاطئًا.

- بلى وأنتَ تعرف.

- [بجدّيّة]: أنا أوافقُ أن أراكِ بكلِّ شروطِكِ يا (سماح).. مهما كانت.

- [بحسم]: إذن فلن نتقابلَ غدًا، فكما قلْتُ لكَ: هذا يثيرُ ألسنةَ الناس، وهي طويلةٌ كما تعلم.

- [بلهجةٍ مدروسة]: ماذا لو التقينا بعيدًا عن أعينِ الناس؟

- [دقَّ قلبي بقلق]: ماذا تعني؟

- [بصوتٍ بريء]: أعني أن نتقابلَ في شقّتي.

- [باستنكار]: (إياد).. ماذا تقول؟

- أيْ حبيبتي.. رفقًا بـــي.. لم أقصدْ أيَّ شيءٍ يُضايقُك.. أنا فقط أحاولُ حلَّ المشكلـــةِ التي طرحْـــتِها لتوِّك.

- [بصرامة]: ولكنَّ الحلَّ ذاتَه مصيبة!

- [بحزم]: هذا يتوقّفُ على مدى ثقتِكِ بي.

- لا دخلَ لهذا بالثقة.. إنَّ مجرّدَ قدومي إلى شقّتِكَ، وصمةٌ على سمعتي.. أنتَ بالطبعِ تفهمُ هذا.

- [في ضيق]: إذن ماذا نفعل؟.. أستسلمُ لعدمِ رؤيتي لكِ إلى الأبد؟.. هذا كثير.. كثيرٌ جدًّا يا (سماح).

شعرتُ في أعماقي بضَيقٍ مماثل.. ولكن ما باليدِ حيلة.. يجـــبُ أن يكونَ للعقلِ دورٌ بجانبِ القلب.. هذه هي تعاليمُ قدّيستُنا (رانيا)!

- (سماح).. لماذا لا تُجيبين؟

- لا شيء.. كُنْتُ أفكّرُ في حلٍّ لمشكلتِنا.

- وهل وجدْتِ حلا؟

- يعني.. يمكنُنا أن نَقْصرَ لقاءاتِنا على الجامعـــةِ وحدَها، أمّا إذا شئنا الخروجَ من نطاقِها، فلا بدَّ أن نصطحبَ معنا بعضَ الرفقاء.

- [في ضجر]: آه.. وأظلُّ متحفّظًا، لا أستطيـــعُ حتَّى النظرَ فِي عينيكِ بطلاقة!.. يا لها من بدائلَ رائعة!

- [بمكر]: هل لديكَ أنتَ حلٌّ مُجدي؟

- لقد طرحتُ الحلَّ الوحيدَ الذي أملِكُه بالفعل.. لا بأس.. هل سأراكِ غدًا داخلَ الجامعة؟

أصابتني خيبةُ الأمل، بعدَ أن فشلْتُ في استدراجِه إلـــى القفـــصِ الذّهبيّ، ولكنّي قُلت:

- أعتقدُ أنَّ هذا ممكن.. ولكنْ مع التزامِ التحفّظ، فنحنُ في إجازة، والجامعةُ شبهُ خاليةٍ الآن.

- ما تشائين.. [وتردّدَ لحظة] أريدُ أن أفعـــلَ شيئًا، وأخافُ أن تعترضي عليه!

- [ضاحكةً]: لا تَخْشَيَنَّ شيئا.. ما دامتْ تفصلُ بينَنا المسافات!

- [برقّة]: حسنًا.. تُصبحينَ على خير.

وأرسلَ لي قُبلةً رقيقةً عبرَ موجات الهاتف، استقرّتْ في قلبي إلى الأبد.

*****

وصلَتني رسالة على بريدي الرقمي، من مرسل لا أعرفه.

فتحْتُ الرسالة، فوجدْتَ فيها ما يلي:

عزيزتي (سماح):

لا أتحرّجُ أن أقولَ (حبيبتي) ــ وهأنذا أقولُها ــ ولكنْ لم أشـــأْ أن أبدأَ خطابي بما يُثيرُ غضبَك، وأنا أعـــرفُ أنَّ حبّـــي لـــكِ يُثيـــرُ غضبَك!

بالتأكيدِ تعرفينني الآن، وإنْ لمْ، أقُلْ لكِ إنّني (كريم شاكر).

جرأة؟!.. تهوّر؟!.. أنا مجنونٌ بكِ، ولا يُؤاخـــذُ المجـــانينُ علـــى أفعالِهم!

تحدَّيْني تَرَيْ: أنـــا على استعدادٍ لأنْ أجـــوبَ طرقـــاتِ الجامعـــةِ صـــارخًا بأعـــلى صوتي: "إنّني أحبُّ (سماح فتحي)" حتَّى يُـــبحَّ صوتي أو يُهلكَني التعب.

على فكرة: لقد كذبتُ عليكِ مرَّة.. كانَ ذلكَ حينَ قُلْتُ إنّي لمْ أبُـــحْ لكِ بحبّي لك، حتَّى أتأكّدَ أوّلا أنّه ليسَ من أوهامِ المراهقة.

لا لمْ يكُنْ ذلكِ قَطّ.

إنَّ حبَّكِ في داخلي حقيقةٌ مؤكّدة.. جملةٌ مكتملةُ الأركان.. مُســـلَّمةٌ رياضيّةٌ لا تحتاجُ إلى برهان.

(كريم) يحبُّ (سماح).. (كريم) يحبُّ الحياة.. (كريم) له وجود.

تعرفينَ إذن لِمَ أخفيتُ وداريت؟

لأنّي عاقلٌ ــ سُحْقًا للعقل!.. عاقلٌ بعضَ الشيء.

لهذا رُحْتُ أقولُ لنفسي كلّما أبَّتْ إلى أنْ تُصارحَكِ بمشاعري:

- ومَن أنا حتَّى أذهبَ إليها أحملُ كلمةَ الحبّ؟.. ألنْ تراها ثقيلةً على كاهلي؟.. مَن هو (كريم شاكر)؟.. إنسانٌ ما زالَ بلا هُويّة، مُستقبلُه غامضٌ، لا تأتمنُه فتاةٌ عاقلةٌ على قلبِها وحياتِها وغدِها.

لهذا تأنّيْتُ ــ ليتَ أنّي ما فعلْت!.. لم أكنْ أنوي أن أصارحَكِ قبلَ العامِ القادم.. على الأقلِّ حينَها نكونُ قد وصلْنا سنَّ الرشد.

أتعرفين: أنا دخلْتُ كلّيّةَ الإعلامِ من أجلكِ أنت؟

ألمْ أكُنْ أسألُكِ دومًا عن طموحاتِك، وعنِ الكلّيّةِ التي تَهْوَيْن؟

لهذا جعلْتُ هدفي أن أُحرزَ أعلى مجموعٍ مُمكنٍ حتَّى ألتحقَ بكلّيّـــةِ الإعلامِ معك.

أعترفُ لكِ بسرٍّ صغير؟.. لقد كُنْتُ أفضّلُ أن ألتحقَ بكلّيّةِ التجارة، فقد كنتُ أعتبرَ نزعةَ الأدبِ بداخلي مجرّدَ نزوة.

لستُ نادما.. يكفيني أن تُحبّي الشيءَ لتُحبَّه نفسي.

أقولُ لكِ ماذا سيتبادرُ إلى ذهنكِ بعدَ السطرِ السابق؟

ستقولين: (كريم شاكر) فزّاعةُ حقل.. ظلٌّ يتبـــعُ حائلَـــه.. رجـــلٌ تحرّكُه فتاتُه.

لا.. (كريم شاكر) مختلـــفٌ عَـــن هـــذا.. إنّه رجلٌ قويّ.. رجلٌ شرقيٌّ لو لمْ يُفزعْكِ هذا المصطلح.. إنّه غيور.. عنيد.. إذا قرّرَ لم يتردّدْ، وإذا أقدمَ لمْ يُحجمْ، وإذا فعلَ لمْ يندمْ.

أمّا كونُه يحبُّكِ فهي نقطةُ ضعفه.. شيءٌ خاصٌّ مُختلـــف، يجـــيءُ عندَه فينسى أنّه قويٌّ وأنّه عنيدٌ وأنّه مقدام.

شيءٌ مثلُ قلبِه: يدقُّ شاءَ أم أبى، مع أنّه عضوٌ في جسدِه.

وأنتِ سويداءُ قلبِه.

أنا لستُ أحمقَ كما بَدَوْتُ لكِ حينما أعلنْتُ حبّي.

كانت غَيْرَتي وأنا أراكِ تضيعينَ منّي أقوى منّي.

نسيتُ عقلي وأنا المشهورُ بالتفكيرِ دائما.. نسيتُ فصـــاحتي وأنـــا المعروفُ بها.. نسيتُ هدوئـــي وهو حصنـــي، فـــانطلقَ لســـانُ غضبي يُلقي بالكلماتِ الطائشةِ على مسامعِك.

عزيزتي (سماح):

لا أتحرّجُ أن أقولَ (حبيبتي) ــ وهأنذا أكرّرُها ــ ولكنّي لا أريــدُ مضايقَتَكِ في موضعٍ أريدُ فيه استسماحَك.

أريدُكِ أن تصفحي عنّي، كما صفحْتُ أنا عنكِ.

أجلْ غضبْتُ منكِ لمّا بالغْــتِ في تجريحي آخــــرَ مــرَّة، وأنــا كرجلٍ شرقيٍّ أعتزٌّ بكرامتي كثيرا.

ولكنَّ قلبي الكبير، أبى إلا أن ينتصرَ الحبُّ الكبيرُ في أولِ مواجهةٍ عاصفةٍ له.

حبيبتي (سماح):

وأنا هنــا أقولُ (حبيبتي) عامــدًا، مُتعمّــدًا، فمــا ســيليها حتمًــا سيضايقُك.

إنّكِ لي.. شئتِ أم أبيْتِ.

استنكري.. اسخري.. اصرخي استنجدي بالعالمِ أسْرِه.. افعلي مــا شئتِ.. لنْ أتنازلَ عنكِ مُطلقًا، حتَّى أظفرَ بكِ أو أهلكَ دونَكِ.

انتظري، وستعرفينَ جيّدًا مَن هو (كريم شاكر).

ملحوظة:

لمْ أعملْ بنصيحتك، بأن أستعينَ بكتُبي في اجتلابِ مادّةِ الحــبِّ والرومانسيّة، لأنّي قرّرْتُ أن أكتبَ لكِ مــا بــداخلي بتلقائيّــةٍ وطلاقة، مهما كانَ وكما هو.. آسفٌ لمخالفةِ نصيحتك.

مُحبُّـــكِ

العنيد: (كريم شاكر)

*****

قرأتُ الرسالة مرَّاتٍ ومرّات، ولمْ أَقْضِ من الأمرِ العَجَب!

(كريم شاكر) يُخفي في أعماقِه كلَّ هــذا الــزَّخَم؟!.. كــلَّ هــذه الرومانسيّة؟!.. كلَّ هذه المشاعر؟!

(كريم) هذا أغربُ شخصٍ صادفْتُه في حياتي.. كالبحــر: عميــقٌ وغامض.. شاسعٌ وزاخر.. ومخيف أيضا!.. إنّه لغزٌ حقًّا!

وأسلوبُه.. لا أعتقدُ أنّه اقتبسَه من كتابٍ أو رواية، فــبخلافِ أنّــه نابضٌ ومتدفّق، فإنّه مُختلفٌ تمامًا عن كلِّ النصوصِ التي قرأتُهــا في الرواياتِ ورسائلِ الغرام.

إنّه أسلوبُه هو، لأنّي ألمحُ فيه جزءًا من نفسِه.. جزءًا جديدًا علــيَّ في الواقع.

أعترفُ أنَّ خطابَه يُدغدغُ شيئًا في أعماقي.. سعادةً خفيّةً لا أدري مصدرَها.

تبًّا.. هذه خيانةٌ لــ (إياد)!

ولماذا تكون؟.. إنّها مشاعرُ فطريّة.. إنَّ كلماتِه هذه تــداعبُ فــي أنوثتي إحساسَ التّملّكِ والسيطرة.

هل أنا صادقة؟

على العكس، إنّها تداعبُ في أنوثتي إحساسَ الضعفِ والتبعيّة.

لا أشعرُ بالخجلِ من هذا، فما دمتُ أنثى فأنا رقيقــةٌ رومانســيّة، أعيشُ في شقِّ المشاعر، وأتركُ رجلي يحملَ عنّي شــقَّ الأعبــاءِ والمتاعب.

أجل، أحبُّ الرجلَ الذي يفرضُ وجودَه عليّ.. الذي يقولُ لي بقوّة: "إنّكِ لي شئتِ أم أبيتِ".

الرجلَ الشّرقيّ ــ ولا أدري لماذا قالَها (كريم) على استحياء!

أنـــا فعلا أفضّلُ الرجلَ الشرقيّ، الغيورَ القويَّ القـــاطع، دونَ أن يكونَ قاسيًا أو شرّيرًا أو همجيًّا.

لا أرى تعارضًا بينَ أن يكونَ الرجلُ (شرقيًّا)، وبـــينَ أن يكـــونَ (عصريًّا).

فالغَيرةُ لا تضادُّ الرّقّة، فكلاهما تعبيرٌ عن حبٍّ جارف.

والرجلُ القويُّ المطاع، ليسَ بالضرورةِ جـــلادًا، يُعامـــلُ امرأتَـــه كالجارية.

أعتقدُ أنَّ هذه الصورةَ تكوّنت لديّ بتـــأثيرِ أبـــي.. إنّـــه يحظـــى بالاحترامِ الواجبِ في بيتِه، عن حُـــبٍّ لَـــه ولرقّتِه وقوّةِ شخصيّته، دونَ أن يكـــونَ ظالمًا أو قاسيا، ودونَ أن يطمسَ شخصيّةَ أيٍّ منّا.

ثمَّ إنّني أكرهُ الرجلَ الضعيف.

حتَّى لقد تضايقْتُ من نفسي، حينما قلتُ لـــ (إياد) فـــي السّـــيّارة، بعـــدَ محاولتِه (الناجحةِ) لتقبيلي: "أعتقدُ أنَّ أسلوبَكَ وقـــحٌ بعـــضَ الشيء".

بصراحة: كُنْتُ أتمنّى ساعتَها أن يغضبَ منّي وأن يُخاصـــمَني، أو أن ينظرَ في عينيَّ نظرةَ تهديدٍ تجعلُني أنكمشُ أمامَـــه، حتَّـــى لا أجرؤَ على إهانتِه مرَّةً أخرى.

هل ستعتبرْنني فتاةً تافهةً أو مهزوزةً أو رجعيّة؟

لا أدري، ولكنَّ فكـــرتي عن الرجولةِ والأنوثةِ تجعلُنـــي أومـــنُ تمامًا، أنّني إذا أردتُ الاحتفاظَ بمقوّماتي كأنثى، فلا بدَّ أن أعترفَ للرّجلِ بمقوّماتِه كرجل.

مثلا: لا أعتقــدُ أنَّ الرجــالَ يفضّلونَ المــرأةَ التي تلعــبُ (كمالَ الأجسامِ) أو (المصارعةَ) أو (الملاكمةَ) أو (رفعَ الأثقال).

إنّها قويّة، أقوى من كثيرٍ من الرجال، ولكنّها لم تعُدْ رقيقةً هشّــةً جذّابةً كأنثى.

طبعًا أنا مقتنعةٌ تمامًا أنّه لا يوجدُ شيءٌ يفعلُه الرجل، لا تســتطيعُ المرأةُ فعلَه.

فكما تمارسُ الألعــابَ البدنيّةَ العنيفة، فهي تزاولُ المهــنَ التــي تعتمدُ على الذّكاءِ والقوّةِ الذهنيّة كالطبِّ والهندسة، والتــي تعتمــدُ على قوّةِ الشخصيّة، كالمحاماةِ والسياسة.

وهي اليــومَ تلتحقُ بالشرطــةِ والجيــــش، وتقــودُ الطــائراتِ المقاتلة، وترتادُ الفضاء.

ليستْ مشكلةَ استطاعةٍ إذن، بل مشكلةَ تناسب.

أنا أرى أنّه إذا استغنــتِ المرأةُ يومًا مَــا عن وجودِ الرجلِ فــي ماكينةِ المجتمع، فسيستغني عنها الرجلُ بــدورِه، لأنّهــا ســتكونُ ببساطةٍ قد صارتْ مثلَه: رجلا!

لقد شطحْتُ في تأمّلاتي.. كلُّ هذا بسببِ خطابِ (كريم) باشا.

واللهِ إنَّ (كريم) هذا لمشكلة!

أعترفُ أنّه لو كانَ صارحني بحبِّه قبلَ هذا العام، لكنــتُ بادلتُــه المشاعر.

المشكلةُ أنّي غارقةٌ حتَّى أذنيَّ ــ بل حتَّى ما فوقَ شعري ــ فــي حبِّ (إياد).

و(كريم) بعنادِه وإصرارِه بالتأكيدِ سيوقعُني في كثيرٍ من المآزق.

فليفعلْ ما شاء.

(إياد) هو كلُّ شيءٍ في دنياي.

ولكنّي سأقرأُ رسالتَه مرَّةً أخري.

إنَّ فيها صوتَ ذلك الرجلِ الشرقيِّ العنيدِ الهصور، العاشقِ الولهانِ شديدِ الرّقّة!

لا تُخبرْنَ (إياد) أرجوكنّ.

١١- المواجهة

بسيطًا رائعًا، كان حفلُ خطبةِ (رفيق) و(رانيا).

كلُّ ثلّتِنا الذهبيّةِ كَــانت هنـــاك، في صالةِ الاحتفـــالاتِ بالنـــادي، يُشيعونَ جوًّا من البهجةِ والمرحِ على الاحتفال، بأغانيهم الظريفة، ورقصاتِهم الرشيقة.

كانت (رانيا) سعيدة.. عيناها غدٌ، وبسمتُها مدى.

و(رفيق).. جعلتْني سعادتُه أكادُ أخطئُ تعرّفَ ملامحِه.

متى نحلُّ أنا و(إياد) مكانَهما، في لعبِ هذا الدورِ اللذيذ؟

بالطبعِ لم أنــسَ أن "أقــرصَ (رانيا) في رُكبتِها"، ونحــنُ نتبادلُ الأمنياتِ الضاحكة.

*****

وقفَ (إياد) بجواري، وهمسَ لي وهو يتابعُ لهوَ أصدقائنا:

- هيه.. ما أخبارُ لذيذتي حوّاء؟

قلتُ وأتمايلُ مع النغماتِ الراقصة:

- في أسعدِ حالٍ يا (دون).. أقصدُ يا (دون جوان)!

- [باسمًا]: دعابةٌ جيّدةٌ رغمَ أنّها سخيفة.

- راقبْ كلماتِكَ يا فتى، فهي تُناقضُ نفسَها!

- هذا دأبي مُذْ عرفْتُ جنّيّةً ساحرةً مثلَك.. تَلَخْبَطَ كلُّ حالي.

- ليسَ هذا واضحًا.. فبخلافِ أناقتِكَ الأسطـــوريّة، ونظراتِكَ الواثقةِ الثاقبة، التي لَـــمْ تستثْنِ منهـــا فتاةً هنا، فإنّكَ مَـــا زلتَ تلعبُ بالألفاظِ لعـــبَ الحواةِ والمُشعوذين!

- يعْ!.. "الحـــواةِ والمُشعـــوذين"؟!.. تتحـــرّدينَ أن تقـــولي الشّعـــراءَ والعاشقين؟!

- [بمكر]: تجاهلْتَ أهمَّ ما قلْتُ لتجادلَني في لفظتين!

- اتهامٌ باطلٌ لن أرهقَ نفسي بالردِّ عليه.

- إنّني أحذّرُك.. فأنا يا سيّدُ (إياد) غيورٌ من الدرجةِ الأولى، ومثلي الأعلى في ذلكَ من يقطّعْنَ أزواجهنَّ ويُعبّئنهم في الأكياسِ البلاستيكيّة!

- [وهو يتحسّسَ عنقَه]: احمْ.. الحمدُ لله أننا لسنا متزوّجيْنِ.

- ها ها.. أتظنُّ هذا يمثّلُ فارقًا؟

- [هرشَ رأسَه]: يا لها من تدبيسة!

- هكذا؟.. ماشي!.. تذكّرْ كلماتِكَ جيّدًا يا (سي) (إياد)، فسيجيءُ يومٌ تدفعُ فيه ثمنَها غاليا.

- ولمَ لا يكونُ الآن؟

وجذبني من يدي لنغادرَ القاعة، فسألتُه:

- إيه.. إلى أينَ تذهبُ بي؟

- إلى حيثُ نسوّي كلَّ حساباتِنا.. أنا شخصيًّا أحبُّ الدفعَ الفوريّ.

- [ضاحكةً]: ألم أقلْ إنّكَ مغرور، ولا تدركُ ما أنتَ مقبلٌ عليه؟! جذبني، حتَّى انتحينا ركنًا قصيًّا هادئًا من حديقةِ النادي، حيثُ بدا الجوُّ دافئًا، تُلاطفُه نَسْماتٌ رقيقة، وصوتُ الصخَبِ في قاعةِ الاحتفالِ يتهادى إلينا خافتًا، فقلْتُ ببسمةٍ حالمة:

- إنّه يومٌ جميلٌ يا (إياد).. ليتني كُنْتُ الآنَ مكانَ (رانيا).

- [وهو يتصنّعُ الغباء]: بمفردِك؟

- [في غيظ]: لا بالطبع.. أنا وأحدُ القرودِ اللطيفةِ بالطبع!

- إمْ.. رائع.. ستكونانِ متلائمينِ تمامًا!

- [وأنا أضربُه في مرح]: سخيف.. سخيف.

- طبعًا.. بدليلِ أنّي أحبُّك.

واحتضنني فجأةً مُردفًا في همس:

- أحبُّكِ بمنتهى الجنون.

عجزْتُ عن أن أقاومَه، فهمهمت:

- ألم تسأمْ هذه الكلمة؟

- لا أجدُ غيرَها.. إنها كمعظمِ الحقائقِ الأبديّةِ لا تتغيّــرُ أبدا.. هل تسأمينَ من شروقِ الشمس؟.. من استنشاقِ الهواءِ أو التهامِ الطعام؟.. كيفَ أملُّ من ترديدِ كلمةِ "أحبُّكِ" وهي نبضُ قلبي ذاته؟

أسكرتْني كلماتُه، وأحسسْتُ أنّي أحلّقُ فــي ســماءِ الحلــم وهــو جَناحاي، بينما قرّبَ هو شفتيه من شفتيَّ و...

التمعَ فجأةً فلاشٌ باهرٌ أغشى أعينَنــا، وأخرجنــا مــن لحظتِنــا الأسطوريّةِ في عنف، مع صوتٍ ساخرٍ يقول:

- لحسنِ الحظِّ أنَّ معي آلة تصوير، حتَّى لا يبتلعَ العدمُ هذه اللحظةَ الرائعة، تاركاً إثمَها فقط.

التفتُّ في ذعر، وقلبي يسقطُ بينَ قدميّ، فوجدتُ (كريم) يحملُ آلةَ تصوير ضوئيّ، وينظرُ لنا بمنتهى البرود.

*****

لثوانٍ لزجةٍ خانقةٍ تجمّدَ الموقف.

حتَّى أنا، لم أستطعِ انتزاعَ نفسي من حِضْنِ (إياد)، وأنــا أحملــقُ كالبلهاءِ في (كريم).

قالَ بسخريةٍ لاذعة:

- أيُعجبُكما الوضع؟.. ألتقطُ لكما صورةً أخرى؟

أفلتني (إياد)، وعقدَ حاجبيه قائلا بغضب:

- ما الذي تظنُّ نفسَكَ فاعلَه؟

نظرَ له (كريم) باستهانةٍ وقال:

- أه!.. هناكَ مَن يجيدُ الحديثَ في مثلِ هذه المواقفِ المُخزية!.. دعْنا نَرى هذا الاكتشافَ الجديد!

تقدّمَ منه (إياد) قائلا في سَخَط:

- هل تروقُ لكَ سخافتُك؟.. اكتفِ فقد اكتفينا.

اكتفى (كريم) بنظرتِه الهازئة، فقالَ (إياد) بتوتّر:

- أعْطِني هذه (الكاميرا).

ومدّ يدَه لاختطافِها، فأبعدَها (كريم) عن مُتناولِه.

قالَ (إياد) وهو يضغطُ على أسنانِه:

- قُلْتُ لكَ هاتِ (الكاميرا).

وجدّدَ محاولةَ اختطافِها، فأبعدَها (كريم).

قُلْتُ وأنا ألتقطُ أنفاسي بصعوبة:

- أرجوكَ يا (كريم).. أعْطِها.

رمقني بنظرةٍ باردة، كادتْ تشُلُّ أطرافي، ولمْ يُعقّب.

وهنا صاحَ (إياد) في غضب:

- أيُّها اللعين!

ودفعَ (كريم) في صدرِه بعنف، واجهه هذا ببساطةٍ قائلا:

- هيّا افعلْها ثانيةً.. أعطني ذريعةً كافيةً لتحويلِكَ إلى نفاية.

استشاطَ (إياد) غضبًا، فضمَّ قبضتَه صارخًا:

- سترى إذن عاقبةَ غبائِك.

وطوّحَ قبضتَه نحوَ وجهِ (كريم)، ولكنَّه استقبلَها على ساعدِه فِـــي سهـــولة، وهو يُدمدم:

- جَنَتْ على نفسِها (براقش)[1].

وقبضَ على ذراعِ (إياد)، ولواها في حركةٍ سريعة، أجبرتْ جســـدَ (إياد) على الدورانِ حولَ نفسِه، قبلَ أنْ يسقطَ أرضًا وهو يُطلـــقُ صيحةَ ألم.

هتفْتُ وأنا أعدو نحو (إياد) في جزع:

- (إياد).. اللعنة.. ما الذي تفعلُه به أيّها الوغد.

وانحنيْتُ أعاونُ (إياد) على النهوض، و(كريم) يقولُ بسخرية:

- أبدًا.. أثبتُ لكِ فقط، أنَّ رجلَكِ من ورق!

نهضَ (إياد) في غضب، وصرخْتُ أنا في وجْهِ (كريم):

- إنّه في نظري أكثرُ رجولةً من حقيرٍ مثلِكَ يستعرضُ عضلاتِه.

وهتفَ (إياد) وهو يلوّحُ في وجهِه:

- ستندمُ يا (كريم شاكر).. أقسمُ أن تندمَ أشدَّ الندم.

ضحكَ (كريم) في استهانة، فغلى الدّمُّ في عـــروق (إيـــاد)، وهـــمَّ بالانقضاضِ عليه، لولا أن تعلّقْتُ به صارخةً في خوف:

- لا أرجوك.. إنّه يريدُ أن يُفقدَكَ أعصابَكَ حتَّى.. حتَّى...

قالَ (كريم) بسخريةٍ مسمومة:

- حتَّى ماذا؟.. أكملي.. قولي لبطلِكِ المغوارِ إنّني أستفزُّه حتَّى أضربَه.

قُلْتُ في كراهيةٍ تكفي لنسفِ الكرةِ الأرضيّة:

- أنتَ أحقرُ شخصٍ رأيْتُه في حياتي يا (كريم شاكر).

اشتعلتْ عيناه وهو ينظرُ لي، وتقدّمَ ناحيتي فارتجفتْ أوصالي، وقلْتُ برعْب:

- ما الذي تنوي فعْلَه؟

جذبني مِن يدي بقسوة، وراحَ يجرُّني خلفَه، فصرخْتُ وأنا أستميتُ في التخلّصِ من قبضتِه الفولاذيّة:

- دعني.. دعني أيُّها الحقير.. (إياد).. (إياد).

ونظرتُ لـ (إياد) باستنجاد، ولكنّه كانَ متسمّرًا في مكانِه بعجز، وهو يُدمدم:

- ستندمُ يا (كريم).. ستندم.

توقّفَ (كريم) فجأةً، واستدارَ يواجهُه قائلا بازدراء:

- أهذا كلُّ ما لديك؟.. خلتُكَ ستحاولُ الدفاعَ عن فتاتِك.

حاولْتُ أن أنتزعَ معصمي من قبضةِ (كريم)، ولكــنَّ ذلــك كــانَ مستحيلا، فقلْتُ والدموعُ تطفرُ من عينيّ:

- دعني أيُّها الحقير.. دعني.. إنّكَ تُؤلمُني.

التفتَ إليَّ قائلا بغضب:

- لستُ أنا الحقيرَ يا (سماح) هانم.. الحقيرُ هو الذي يتلاعبُ بمشاعرِكِ حتَّى يصــلَ إلى أغراضِه الدنيئــة.. الحقيرُ هو هذا الجبانُ الذي لا يُدافعُ عنكِ حينما تحتاجينَه، حتَّى لو كانت حياتُه هي الثمن.. الحقيرُ يقفُ أمامَكِ هناك، يتوعّدُ ولا يفعل.. يزأرُ في وديانِ الصدى من جُحورِ الجُبن.. فقط يُجيدُ الأحضانَ والقُبلاتِ والليالي الرخيصة.. هذا هو كلُّ ما يقدّمُه لفتاتِه.. عرفْتِ الآنَ مَنِ الحقير؟

بكيتُ وأنا أتمتمُ في عَجْز:

- دعْني.. دعْني أرجوك.. أرجووووك.

تركَ معصمي وهو يقولُ بحزم:

- سأتركُكِ الآنَ يا (سماح).. ولكنْ تأكّدي دائمًا، أنَّ عينَ (كريم شاكر) لن تغفلَ عنكِ أينما كُنْتِ.. لا تَنسَيْ هذا أبدا.

وأبَّ لينصرف، ولكنّه توقّفَ قائلا بسخرية:

- آه.. نسيتُ أمرًا.

ورفعَ آلةَ التصويرِ أمامَ وجهي قائلا:

- عدســـةُ (الكاميرا) كانت مُغطّـــاة.. للأسَف: لم تُخلّدْ لحظتكما الأسطوريّة الرائعة!

وانصرفَ مُخلّفًا وراءَه صمتًا وجمودا.

*****

دامتْ امبراطوريّةُ الصمتِ لفترةٍ طويلة.

وأخيرًا رفعْتُ بصري إلى (إياد)، وأنا أُكفكفُ أدمعي.

وجدْتُه مُطرقًا، ووجهُه يحملُ آثارَ غضبٍ عنيف، وآثارَ خجلٍ من مواجهتي.

وبدونِ وعيٍ تحرّكْتُ نحوَه، واستكنْتُ في حِضْنِه مُتمتمةً:

- أنتَ في نظري أكثرُ رجولةً منه.. صدّقْني: إنّه وغدٌ حقير.

- [في حزن]: ولكنّه كانَ على حقّ.. لمْ أستطعِ الدفاعَ عنكِ.

- إنّه يجيدُ بعضَ ألعابِ العنف.. ولكنّه ليسَ قويًّا مثلَك.. ليسَ شُجاعًا مثلَك.

- [في حقد]: ولكنّه يحتاجُ إلى تأديبٍ عاجلٍ على أيِّ حال.

- [بقلق]: ماذا تعني؟

- [في غضب]: ما دامَ يؤمنُ بلغةِ الفتوةِ إلى هذه الدرجة، فلا بدَّ من أن أرسلَ إليه خطابًا قويَّ اللهجةِ باللغةِ نفسِها!

- [رفعتُ رأسي إليه في جزع]: لا يا (إياد).. لا تتورّطْ في أيِّ عملٍ أخــرق.. لا تكُنْ همجيًّا مثلَه.. إنّه يغارُ منكَ لأنّكَ تملِكُني وهو لا.. تسكنُ قلبي وهو لا.. تمتزجُ برُوحي وهو لا.. أرجوكَ لا تُعطِه فرصةً ليكونَ نِدًّا لك.. إنّه لا يساوي شيئًا على الإطلاق.

- سنرى يا (سماح).. سنرى ما يُساويه هذا الأحمقُ بالضبط.

وشعرتُ بانقباضٍ ثقيل.

*****

لمْ أشاركْ (رفيق) و(رانيا) سعادَتَهما، فبعدَ ما حدثَ لــمْ أســتطِعْ الاندماجَ في الحفلِ مرَّةً أخرى.

لا أعتقدُ أنّهما افتقداني، فقد كانــا في شُغُلٍ شاغــلٍ عــن الــدنيا بأسرِها، وعينا أحدِهما عُشٌّ عينَيِ الآخرِ الدافئ.

يا للحنقِ الهَتونِ الذي يجتاحُ مساحاتٍ شاسعةً من نفسي!

لماذا يبرزُ (كريم) ــ هذا الأخرقُ ــ كلّما عِشْتُ لحظةً أسطوريّة؟!

الوغد!.. كادَ قلبي يتوقّفُ حينما انطلَتْ عليَّ خُدعتُه القاتلة، وظننْتُ أنّه التقطَ صورتي وأنا في ذراعَيْ (إياد).

كنتُ أفكّرُ في هذا، حينما ارتفعَ رنينُ هاتفي فالتقطْتُه بشرود.

جاءني صوتٌ واثقٌ يقول:

- جميلٌ أنّكِ لم تنامي بعد.

- [انعقدَ حاجبايَ في حنق]: (كريم)؟!.. كيفَ تصلُ بكَ الوقاحةُ إلى...

- [بحزم]: (سماح).. اسمعي وعي بدونِ مقاطعة.

- [بتوتّر]: لماذا تُخاطبُني بهــذه اللهجة؟.. ما الذي يُرغمُني عــلى سماعِ حديثِكَ الغبيّ؟

- [بصيحةٍ هادرة]: (سماح)!

ازدردتُ لعابي وصمتُّ في توتّر، فتابعَ في صرامة:

- ليسَ كثيرًا مَــا ســأقول.. إنّني أحذّرُك: إذا تكرّرَ ما حدثَ فستكونُ العواقبُ وخيمة.

- [بسخرية، رغمًا عنّي كانت مُرتجفةَ الأحرف]: وما الــ.. الذي ستفعلُه أيّــ.. أيُّها البطل؟

- [في معاناةٍ واضحة]: ماذا تتوقّعينَ من رجلٍ شرقيٍّ يرى حبيبَتَه في حِضْنِ رجلٍ آخر؟.. [وبعنف] إنّكِ محظــوظةٌ اليومَ، فقــد تمالكْــتُ أعصابي بصعوبة.. لقد كانَ أوّلُ ما جالَ بخاطري هو أن أقتلَكما معا.

- [بحدّة]: هذه همجيّةٌ لا أستبعدُها عنك.

- [صارخًا بصوتٍ جــريح]: همجيّة؟.. همجيّةٌ أن يغلي دَمي في عــروقي حينما أراكِ ــ وأنتِ كلُّ عمري ــ في حِضنِ

كلبٍ حقيرٍ مثلِ (إياد).. اللعنةُ عليّ.. لماذا لمْ أمزّقْه أمامَكِ بأظافري تمزيقاً حتَّى تدركي مدى غيْرَتي عليكِ.. اللعنةُ اللعنة.

لهجتُه كانت رهيبة، حتَّى إنّني ارتجفْتُ وأنا أتخيّلُه يُنفّذُ وعيــدَه، فقُلْتُ بفزع:

- يا إلهي!.. إنّكَ قد جُننْتَ حتما.

- [زفرَ وحاولَ أن يتمالكَ صوتَه]: اعتبريني كما يحلو لك.. ولكنْ لو رأيتُ هــذا المشهــدَ ثانيةً فـــ... لا أدري.. الصــورةُ مشــوّشةٌ أمامَ ذهني.. أعتقدُ أنّكِ تُدركيــنَ كيفَ يُمكــنُ أن يتصرّفَ همجيٌّ مجنــونٌ ــ على حدِّ زعمِكِ ــ في موقفٍ كهذا.

- [بصوتٍ مرتجف]: هل تُهدّدُني؟

- [بحزن]: بل أحاولُ إعادتَكِ إلى رشدِكِ.. يا خَسارةُ يا (سماح)!.. إنّكِ تُحطّمينَ الصورةَ المثاليّةَ التي رسمْتُها لكِ في خيالي.. والأدهى أنّكِ لا تشعرينَ بهذا!.. تُحطّمينَ أخلاقَكِ ثمَّ تقفينَ في تحدٍّ تتّهمينني بالهمجيّة!.. يا خَسارة!

- [في غضب]: الزمْ حدودَكَ أيُها الـــ...

- [بغضبٍ أشدّ]: الـــ ماذا؟.. اللعنة.. أما زلتِ تتبجّحين؟.. آه.. وماذا أنتظرُ من فتاةٍ صارتْ تُلقي بنفسِها في أحضانِ كلبٍ حقيرٍ مثلِ (إياد) في جُنحِ الظلام؟؟!!

- [بغضبٍ هَتون]: اخرسْ أيّها السافل.. إنّني أشرفُ من أن أردَّ على كلامِكَ الحقيرِ هذا.

- [بسخرية]: حقّا؟.. معكِ حقّ!.. فالمشكلةُ اليومَ هي في تعريفِ الشرفِ نفسه، ليسَتْ في التزامِه!.. الناسُ كلُّهم بلا استثناءٍ شرفاء، كلٌّ على حسبِ تعريفِه.. اللّصُّ شريف.. المتهرّبُ من الضرائبِ شريف.. الراقصةُ شريفة.. الداعرةُ شريفة.. الناسُ كلُّهم شرفاء!

- [بصوتٍ مُرتعد، وقَــد غلى الدّم في رأسي]: هل وصلَتْ بكَ البجاحةُ إلى أن تُشبّهَني بالراقصاتِ والداعرات؟.. أهذا ما صرْتُ أمثّلُه في نظرِك؟.. لماذا إذن تدّعي أنّكَ تحبّنُي وأنتَ تراني بهذا الانحطاط؟

- (سماح).. أرجوكِ لا تحرّفي كلامي.. إنّكِ إنسانةٌ نقيّةٌ وأنا أعرفُ هذا جيّدًا، بحكمِ ما بينَنا من العشرةِ الطويلة.. أرجوكِ عودي كما كُنْتِ.. عودي (سماح) التي عرفْتُها دومًا.. أرجوكِ يا حبيبتي.. أرجوك.

- [وأنا أحاولُ أن أتمالكَ أعصابي]: (كريم).. أتعتقــدُ أنّنا بعدَ بلوغِنا هذه الدرجةَ من الإهانــةِ والتجريحِ والعداءِ، يمكنُ أن نتوافق؟.. أتعتقدُ أنّني أستطيعُ أن أحبَّك، مع كلِّ هذا القدرِ من الحماقاتِ والبشائعِ التي تُواجهُني بها بلا توانٍ؟

- [ازدردَ لعابَه بصعوبة]: يبدو أنّني أفقدُ أعصابي بسهولة.. ولكنّي على عكسِك، لم أفقدِ الأملَ أن تعودي (سماح) التي أعرفُها.. فقط انفُضي عنكِ هذا التراب، وابتعدي عن مُجاراةِ الموضةِ والتقاليعِ و...

- [بحنق]: اللعنة!.. هل ستُسمعُني خُطبةً عصماءَ طيلةَ الليلِ حولَ الأخلاقِ والمبادئ؟.. (كريم).. ألمْ تفهــمْ بعد؟.. أقولُ لكَ إنّني لا أطيقُك.. لا يمكنُ أن أفكّرَ فيكَ أو أكــونَ مثاليّةً كما تتمنّاني.. وأقولُها لكَ بصراحة: أنا لسْتُ نادمةً على أيِّ شيءٍ أفعلُه.. أنا أحبُّ (إياد)، وأحبُّ أن أنعمَ بحِضنِه الدافئِ وقبلاتِه المُمتعة.. أرأيتَ مدى بجاحتي؟.. اشعرْ يا هذا إذن ودعْني في حالي.. ألا تملكُ كرامةً على الإطلاق؟.. هووووفّ.

رانَ الصمتُ لحظة، قبلَ أنْ يقولَ بتُؤَدَة:

- مُشكلتُكِ هــي أنّي مجنونٌ همجيٌّ كما تزعمين، وهؤلاءِ لا يُمكنُ مُحادثَتُهم بالعقــل أبدا.. (سماح فتحي): اسمعي جيّدًا ما سيــقولُه هذا الهمجيُّ المجنون.. لقد نجحْتِ في جعلي أحتقرُكِ إلى أبعــدِ مدى.. نجحتِ أيضًا في إشعاري بجُرحٍ غائرٍ في كرامتي.. ولهذا ــ كأيِّ مجنونٍ همجيّ ــ أقولُ لك: لن تنعمي بيومٍ واحدٍ من حياتِكِ بعدَ الآنِ يا (سماح).. سأطاردُكِ حتَّى في كوابيسِك.. و(إيادُكِ) هذا لن يحصلَ عليكِ أبدًا.. لا أعني أنّي سأمنعُه من أن يتزوَّجَكِ ــ فهو لن يفكّرَ في هذا حتَّى.. ولكنْ أعني أنّي لن أدعَه يحصلُ عليكِ رخيصةً كالساقطــات..

وحينما أدركُ تمامًا أنّي انتزعتُكِ من بيــنِ براثنِه، فسأطردُكِ من قلبي شرَّ طرْدة.. لا ليسَ من قلبي، فقــدْ غادرْتِه الآنَ توًّا.. سأطردُكِ من حياتي كلِّها.. تمامًا كأيِّ شيءٍ حقيرٍ انتهى أمدُه ووجبَ التخلّصُ منه.. هــذا حَــديثُ همجيُّكِ المجنون، فَعيه جيّدًا.. لا سلام.

وأغلقَ الخط في عنف، وتركني مُمسكةً بهاتفي في ذهول، لا أكادُ أعي كلماتِه.

*****

رأيتُ (رانيا) صباح اليوم التالي للخِطبة.

يا إلهي!.. كأنّها صارتْ مخلوقةً أخرى!

هل السعادةُ تغيّرُ التركيبَ الإنسانيّ، حتَّى ليتعذّرُ علينــا معرفــةُ المرءِ بعدَ أن تَسْحَرَه تعاويذُ الفرحة؟

تبادلْنا حوارًا طويلا عن سعادتِها ومشاعرِها، قبلَ أنْ تتمنّى لي أن ألحقَ بركْبِها سريعا.

ثمَّ إنّها قد سألتْني عن أخباري.

ولأنّي في الحقيقةِ ذهبْتُ إليها (لأعترف) بذنوبي، فقد حكيْتُ لهــا كلَّ ما حدَثَ بالأمسِ بيني وبينَ (كريم) و(إياد).

توقّعتُ ثورةً عارمة، وشلالا من التهديــدِ والوعيــد، وتــلا مــن النصائحِ والحكم، ولكنّي فوجئتُ بعكسِ ذلك تماما.

اكتفتْ (رانيا) بالصمتِ المُطبِق، ولمْ تُزدْ عليه سوى ابتسامةٍ واحدةٍ مُشفقة.

وما زلتُ حائرةً في فهمِ ردِّ فِعْلِها هذا إلى الآن!

---

[1] براقش كلبةٌ نبحتْ في وجهِ اللصوصِ فقتلوها فصارت مثلا!

١٢- الأخلاق

بدأَ الفصلُ الدراسيُّ الثاني.

آهِ ما أحلى الرجوعَ إليه!

رغمَ كلِّ ما حدث، لم يَنقُصْ حُبّي لـــ (إياد) بمقدارِ خردلة.. إنّـــه كائنٌ منَ النورِ والزمانُ في صفِّه.. الزمانُ يمنحُه النمـــوَّ والقـــوّةَ والحكمة.. والنورُ لا يَشيخُ، لأنَّ الطاقةَ لا تفنى.. ولأنّها لا تنبـــتُ من عـــدَم، فأنا أمضي في طـــريقِ حُبّي بخُطىً واثقة، أعرفُ من أينَ بدأْت: قلبي، وأعرفُ إلى أينَ أمضي: (إياد).

ملحوظة:

أريدُ أن أكتبَ كتابًا في فلسفةِ المحبّين، ولكـــنَّ حـــبَّ (إيـــاد) لا يتركُ لي وقتًا لأفعلَ أيَّ شيءٍ آخر!

*****

اجتمعَتِ الثلّةُ وتفرّقَتِ المشاعر.

والعيونُ مرآةُ المشاعر، لذا وجدْتُني في أوّلِ يومٍ غارقةً وسْطَ بحرٍ منَ العيون:

(إياد): الشمسُ التي تسطعُ في عينيه تملؤني دفئا.

(كريم): اللهيبُ الذي يصطرعُ في عينيه يملؤني خوفا.

(رانيا): البهجةُ التي تلهو في عينيها، تغمرُ الدنيا جمالا.

(صفاء): الصمتُ الذي يُعشّشُ على عينيها يزيدُها شرّا.

(سوسن): الغيْرةُ التي تشعُّ من عينيها تملؤني غرورا.

يا لها من دنيا أخرى، غير دنيا الألسن!

*****

و(رانيا) طرأَ عليها جديد.. كانت مُلفتةً للنظرِ بالتأكيد، ليسَ فقط لدُبلةِ الخِطبةِ التي تتلألأُ في إصبعِها، ولا لبسمةِ الغبطةِ التي تتألّقُ في ثغرِها، ولكنْ أيضًا لزيِّها الجديدِ الذي برزتْ علينا به.

غطّتْ شَعرَها، وحبسَتْ جمالَها داخلَ زيٍّ لا يُظهرُ منها سوى وجهِها وكفّيها، هادئِ اللون، طويلٍ سابغ، سميكٍ غيرِ شفّاف، فضفاضٍ غيرِ لاصق!

لقد بدأ أخي (رفيق) يعبثُ بعقلِها!

وبالطبعِ استقبلها الجميعُ بالدهشةِ والتندُّر، وبكلماتٍ ضاحكةٍ مثل: "الشيخةُ (رانيا)" و"الحاجّةُ (رانيا)"، واستقبلْتهم هي بابتسامةٍ هادئةٍ واثقة، كأنّها تصفعُ بها سخريتَهم، وتضربُ بها عُرضَ حائطِ إصرارِها.

شخصٌ واحدٌ فقط قالَ لها بوقار:

- مباركٌ مرّتين: من أجلِ الخِطبة، ومن أجلِ الحجاب.

قالَ (فكري):

- لفتةٌ ذكيّةٌ منكَ يا (كريم).. دائمًا تقولُ ما لا نجيدُ قولَه.

قالتْ (أحلام):

- (كريم) حاضرُ البديهةِ باستمرار، وثقافتُه تمنحُه الرزانةَ وبُعدَ النظر.

ضايقني في عبارتِها شيءٌ لمْ أدْرِه، فقُلت:

- ربُّنا يَسْتُر.. فالإحصائيّاتُ تــؤكّدُ أنَّ النسبةَ الأعلى ممّن يُصابونَ بالاكتاب، هي مِن بينِ المثقّفينَ هؤلاء، الذين تحرمُهم ثقافتُهم منَ مباهجِ الحياة.

قالَ (كريم) بجمود:

- الثقافةُ لا تحْرمُ من مباهجِ الحياةِ أحدًا.. على العكْس: إنّها تزيدُ أوجهَ البهجة، وتُضيفُ إلى المرءِ عالمًا من الخيالِ البهيج، على ضفافِ الكُتُب، وتحتَ سماءِ الفكر.

ماراه (رشيد):

- ولكنْ لا تُنكرْ أنَّ ما قالتْه (سماح) حقيقةٌ إحصائية.

- بالطبع.. الثقافةُ حقًّا تزيدُ الاكتئاب، لكن ليسَ لأنّها تحرمُ المثقّفَ من مباهجِ الحياة، ولكنْ لأنّها تجعلُــه يــرى أكثر، كيــف يُضاعفُ التافهونَ السّطحيّونَ من متاعبِ الحياةِ وآلامِها، وهو لا يملِكُ لهم نفعًا، وهم يَتعمّدونَ له ضرّا.

قالتْ (صفاء) بابتسامةٍ حزينة، وهي تُسدّدُ بصرَها صوبَ (إياد):

- هذا الكلامُ قريبٌ جدًّا ممّا أشعرُ به.

قالَ (إياد) باحتقار:

- هذا كلامٌ متحذلقٌ ليسَ عليه من دليل، سوى الأوهامِ المريضة!

قالَ (كريم) على الفور:

- بل هناكَ أدلّةٌ بعددِ شَعــرِ رءوسِ التافهين.. خذوا (رانيا) مثلا.. لقد هداها اللهُ إلى الحقّ، وانصاعتْ لأمرِ خطيبِها الذي لا ترى في الدنيــا غيــرَه، وارتدَتْ زيًّا مُحتشمًا، وهي في قمّــةِ الرضا ــ ولا أقولُ السّعادة.. فماذا كانت النتيجة؟.. تكأكأتم عليها كلُّكم عليها تسخرونَ منها، وتحاولونَ النيلَ من سلامِها النفسيّ.. فما هو إذن سبــبُ ما يمكنُ أن يحيــقَ بهــا من تضايــقٍ واكتئاب؟.. معرفةُ الحقِّ والوصولُ إليه، أم تفاهةُ المتظرّفين، ورغبتُهم في التسلّي على حسابِ الغير؟

قالتْ (سوزي) بغضب:

- إنّكَ تُهينُنا كلَّنا بهذا الكلامِ السخيفِ ولا تُراعي.

قالتْ (أحلام) مُدافعةً:

- واللهِ ما جاوزَ الحقّ، ولو أنصفْنا كلُّنا لبادرْنا بالاعتذارِ إلى (رانيا).

قالتْ (رانيا) ببساطة:

- لا شيءَ يا جماعة.. أنا لستُ غاضبةً من أحد، فأنا أعرفُ أنّكم إنّما تبغونَ المرح، لا السخريةَ والانتقاد.

قالتْ (صفاء):

- على العمومِ إنّنا ننتظرُ منكَ مقالا يا (كريم)، في مجلّةِ الجامعة، أو في أي مطبوعةٍ من مطبوعاتِ اللجنةِ الثقافيّة وأنتَ مقــرّرُها، تُناقشُ فيه هذه القضيّة.. لطالما كانت آراؤكَ مفيدةً لنا.

لهجتْ (أحلام)، وفي عينِها نظرةُ إعجابٍ واضحة:

- (كريم) موهوب، وأعتقدُ أنّه سيصيرُ صحفيًّا لامعًا في يومٍ من الأيّام.. نعم يا (كريم).. نريدُ أن نرى مقالكَ عن هذا الموضوع.

نظرَ لي (كريم) وقال:

- أعتقدُ بالفعلِ أنَّ هناكَ الكثيرَ من القيــمِ التي صارتْ تحتــاجُ إلى المناقشةِ اليوم، فطغيانُ تيّارِ الأمرِ الواقع، جرفَ العقولَ والضمائرَ إلى الإهمال والتقليد، ولم يَعُدْ أحدٌ يتوقّفُ ليسألَ نفسَه: "أينَ الصوابُ من الخطإ؟".

قالَ (إياد)، وهو يجذبُني من يدي لننصرف:

- هيّا يا (سماح).. ميعادُ المحاضرةِ اقترب.

استوقفَه (كريم) بتهكّم:

- مهلا.. ألا تُريدُ أن تعرفَ أوّلا ردّي على رسالةِ الأمس؟

نظرَ إليه (إياد) شَذْرًا، فواصلَ (كريم):

- رجالُكَ الثلاثة المهذّبون، الذينَ حاولوا تشريحي بالأمسِ وأنا مُتوجّهٌ إلى منزلي، يُمكنُكَ زيارتُهم الآنَ في العنايةِ المُركّزةِ في (قصرِ العيني)!

اربدَّ وجهُ (إياد) ولمْ يُحِرْ جوابًا، قبلَ أنْ يجذبَني من يدي في حدّة، ويتحرّكَ مبتعدًا، و(كريم) يُشيّعُه بضحكةٍ ساخرة.

وغمغم (إياد) من بينِ أسنانِه في حنق:

- الوغد!.. عليه اللعنة.

سألتُه بتوتّر:

- (إياد).. هل حقًّا أرسلْتَ إليه مثلَ هؤلاءِ البلطجيّة؟

- [في ثورة]: سيندم.. أقسمُ أن يدفعَ الثمنَ غاليا.

- [يخوف]: اعقلْ يا (إياد).. لا تَصِرْ همجيًّا مثلَه.. كما أنّكَ بهذا قد تتعرّضُ لمسائلةِ الشّرطة.

- [في عنف]: لن يَقعدَ بي العزمُ حتَّى أفتكَ به.. وعلى الباغي تدورُ الدوائر.

- أرجوك.. إنّني لا أتخيّلُكَ أبدًا قاتلا يا (إياد).. أرجوكَ لا تغمسْ حبَّنَا في الوحلِ والدّمّ.

- لن يصلَ الأمرُ إلى القتل.. اطمئنّي.. إنّها مجرّدُ جُملةٍ تأديبيّةٍ فحسب.

قالَها وصَمَتْ.. سَمِعْتُها وصمتّ.

السماءُ تُنذرُ بعاصفة.

واللهُ وحدَه يعلمُ مَنِ الذي ستُطيحُ به في طريقِها.

*****

لمْ يَحْضرْ (إياد) إلى الكلّيّةِ هذا اليوم.. لا ريبَ أنَّ شيئًا ما قدْ شغلَه.

كمْ كانَ وقتًا مُملا!

*****

و(كريم) جلسَ بجانبي طيلةَ المحاضرةِ الثانية.

ورغمَ أنّه لم ينظرْ لي، ولمْ يوجّهْ حرفًا واحدًا إليّ، إلا أنّه نسفَ تركيزي نسفا.

تبًّا له!

*****

وبعدَ المحاضرةِ فوجئتُ به يضعُ بضعَ وُريْقاتٍ تحتَ بصري، وينهضُ وهو يَحدجُني بنظرةٍ صامتةٍ، وينصرف.

تردّدْتُ طويلا، ثمَّ اختلسْتُ نظرةً لوريقاتِه.. كَانَ مقالا كتبَه، وضعَ له عنوانًا بارزًا هو: "الأخلاق!!!".

أوْغرَ العُنوانُ صدري، ولكنَّ الوريقاتِ جذبتْ يدي قَسْرًا، فتناوَلَتْها ووضَعَتْها في حقيبتي!

هأنذي أرفقُ مقالَه بمذكّراتي:

الأخلاق!!!

بقلم: (كريم شاكر)

قد يُجادلُني أحدُكم، لو قُلْتُ إنَّ الأخلاقَ كالحرباء، تتلــوّنُ بتلــوّنِ البيئةِ المحيطة.

ومنشأُ جُلِّ الجدلِ سيكونُ من مفهومِ كلمةِ الأخلاقِ عندَ كليْنا.. فأنا أعني أخلاقَ الناس، لا الأخلاقَ العليا التي هــي نـــورُ الفطــرةِ السليمة، للسيــرِ على طريقِ الإيمانِ والخير.

فالأخلاقُ بالمعنى الأوّل: هــي مجموعـــةٌ مــن الالتزامـــات، تُحدّدُها القوانيــن والأعرافُ والتقاليدُ والعادات، لهــذا فهي تختلفُ باختــلافِ المكانِ والزمانِ والنفوس.

أمّا الأخلاقُ بالمفهــومِ الأخير: فهي التي يحدّدُهـــا الــدين، ولا تختلفُ معاييرُها بتاتًا، لأنَّ واضعَها واحدٌ، حيٌّ أبدًا لا يموت، كتبَ على نفسه العدلَ والرحمة.

ولْنُعْطِ أمثلة:

فقــد يعتبرُكَ النــاسُ عاليَ الخُلق، لأنّكَ تُقابلُهم بالتملّقِ والنفاق، وتقدّمُ لهم خدماتٍ معيّنة، قد تكونُ نوعًا من المحسوبيّةِ والوساطةِ، على حسابِ ضميركَ في أداءِ وظيفتك.

وأنتَ قد تعتبرُ فتاةً قويمةَ الخُلق، لأنّهــا أنيقــةُ الملــبس، تُــتقنُ (الاتكيت) وتتبعُ آخرَ خطوطِ الموضة، ولا تتأخّرُ في العودةِ إلـــى المنزلِ تاركةً صُحبتَها من الفتيةِ والفتيات، عن الثانيةَ عشرةَ ليلا!

مع أنَّ كلمةَ (الملــبسِ الأنيق)، قد تعني أنّه مثيــرٌ للغرائز، يُظهرُ أكثرَ ممــاّ يَستُر، ويصفُ أكثرَ ممّا يُــداري!.. ومــع أنَّ كلمــةَ (صحبةِ زملائِها)، تعني الفُسحَ والرحــلات، والتهريــجَ المُقترنَ

بالعبثِ والضحكاتِ العالية، وإلقاءَ الدعاباتِ البذيئةِ والنكاتِ الفاضحة، والهزارَ بالأيدي!

حتَّى إنّني حاليًّا ــ توفيرًا للجُهدِ والوقت ــ بدأتُ أتساءل: "ما هو تعريفُ الفتاةِ غيرِ المحترمة؟"

وللأسف، وجدتُ أنّه انحسرَ إلى أنّها الفتاةُ التي تحافظُ على بكارتِها!.. مع أنَّ هذا أيضًا لم يعُدْ مضمونًا، فقد صرنا نسمع عن العمليّات الجراحيّة التي تُعيدُ البكارة، بعدَ ارتفاعِ معدّلاتِ الزواجِ العرفيّ ــ آسف: الزنا العُرفيّ ــ آسفٌ أيضًا: غيرِ العُرفيّ، فهو لم يُكملْ أركانَ الزواجِ وأهمُّها الإشهار، ويُنكرُه العُرفُ أيضا، لهذا يتستر فاعلوه به حتى عن أهاليهم![1].

واضحٌ أنَّ الظواهرَ السلبيةَ تزدادُ في مجتمعِنا بصورةٍ مُخيفة، ولا أستبعدُ أن نصلَ سريعًا إلى إباحيّةِ الغرب!

و(الحمدُ لله) هناكَ مِن قومِنا أناسٌ متحضّرون، يفهمونَ أبعادَ حرّيّةِ الغربِ وتقدّمه على أصولِها، وينثرونَ الدعواتِ من قبيل:

- إلى متى سنظلُّ في غياباتِ القرونِ الوسطى.
- إلى متى ستظلُّ المرأةُ مخلوقًا مطبخيّا؟
- حتّامَ لا يكونُ للمرأةِ ذاتُها وطموحُها في الحياة؟
- لماذا ترى نفسَها مخلوقًا مُكمّلا للرجل، وليسَ نِدًّا مساويًا له؟
- لماذا ينحصرُ مفهومُ الشرفِ عندَ منطقةٍ واحدةٍ من الجسد؟
- ماذا يمنعُ اختلاطَ الرجالِ بالنساء؟.. لماذا نخافُ مثلا أن تكونَ الحجراتُ مشتركةً بين الغرباءِ في رحلاتِ

البواخر؟.. ألا يستطيعُ الرجلُ أن يكونَ مُتحضّرًا؟.. ألا تستطيعُ المرأةُ أن تُحافظَ على نفسِها؟[2]

وغيرَها وغيرَها من الدعواتِ (التحرّريّة)، التي تُحاربُ (الرجعيّةَ الأصوليّةَ المتعفّنةَ) في المجتمع.

وأنا عن نفسي لمْ أعُدْ أستغربُ شيئًا ممّا أراه حَولي، فالحقيقةُ المؤكّدةُ أنَّ الناسَ تعبدُ المجتمعَ أكثرَ ممّا تعبدُ الله.

والمجتمعُ دينُه (العيْبُ) و(الشائع).

واللهُ دينُه الحلالُ والحرام.

لهذا نرى كلمةَ (عيب) أكثرَ زلزلةً ووقعًا من كلمة (حرام).

وفي المجتمعَات الصغيرة كالأرياف، يعرفُ الناسُ بعضُهم البعضَ، فيخافُ كلُّ فردٍ من القيلِ والقال، فيحسبُ لكلّ كلمةٍ وحركةٍ حسابَها.

لهذا تجدُ أغلبَ الفتياتِ مُحتشماتٍ في الشوارع، ولكنّكَ تستطيعُ أن ترى غالبيّتهنّ يخرجْنَ إلى الشرفاتِ والأسطحِ كاشفاتٍ شعورَهنَّ وأذرعَهنَّ، فذلكَ ليسَ عيبا!

أمّا في المدن، فكلمةُ العيبِ أضألُ من هذا كثيرا.

فالزيُّ الفاحشُ موضة، وهو دعايةٌ عن (إمكانيّاتِ) الفتاةِ التي تؤهّلُها للزواج!

ثمَّ إنَّ كلَّ الفتياتِ يلبَسنَ كذلك، ولن يعيبَه أحدٌ على ابنتي، فممَّ الخوفُ إذن؟

وإذا قبّلَ الخاطبُ خطيبَتَه، فإنَّ هذا ليــسَ عيبًا، فهي خطيبتُه أمامَ الناس، ومن حقِّه أن يُقبّلَها قُبلةَ الخِطبة، التي يتمُّ تســجيلُها علــى شرائطِ الفيديو!

ماذا سيحدثُ لو فُسِخَتِ الخِطبة؟.. لا أدري، فلمْ أخطِب واحدةً من هؤلاءِ من قبل ولا أبغي!

والأحضانُ والقُبلاتُ في الحدائقِ العامّةِ لم تعُدْ شيئًا شاذّا، ولم تَعُدْ تستوقــفُ أحدًا.. أنتَ لا تعرفُ مَن يفعلونَ هذا، فلمــاذا تكــونُ عندَكَ النخوةُ لتصدَّهم؟.. وهم لا يعرفونَكَ، فلماذا يستْحيونَ منك؟

حتَّى لو واتتْكَ نخوةٌ مفاجئة، فالقانونُ ليسَ في صــفِّك، وأوّلُ مــا سيحدثُ هو أن تتّهمَكَ الفتاةُ بمعاكستِها، وأنَّ فتــاها كــانَ يُــدافعُ عنها!.. وهنا ستتحرّرُ الشهامةُ من عِقالِها، وينهالُ الجميعُ عليــكَ ضربًا ولطمًا وسُبابا!

والمفروضُ أنَّ مهمّةَ شرطةِ الآدابِ هي أن تحافظَ علــى الحيــاءِ العامّ، ولكنّها قلّما تقومُ بحملاتِها، كما يبدو أنّنا نحتاجُ جيشًا خاصّا لتغطيةِ كلِّ الحائقِ العامّةِ وشواطئِ النيلِ والكباري العلويّةِ فوقَــه، ومنطقةِ (المقطّم) وخلافِها (فتّش عن التلفاز!!).

وآلافُ الظواهرِ الأخرى، التي تخطّاها مصطلحُ (العيْب) بسماحتِه الرائعة!

إنَّ الناسَ تخافُ أن يتناولَ أحدٌ سمعتَها، لهذا حينما يعمُّ أمرٌ مــا ــ بغضِّ النظرِ عن شرعيّتِه ــ يمنحُ هذا المرءَ نوعًا مــن الأمــانِ النفسيِّ الاجتماعيّ.. نوعًا من مُسكّناتِ الضمير، حتَّــى يقتــرفَ الخطأَ الشائعَ وهو مُطمئنٌّ، فلنْ يلومَه أحد.

إنَّ تيّارَ الأمرِ الواقعِ كاسح، والعاداتِ والتقاليدَ والأعرافَ ليستْ كلُّها صحيحة، إن لمْ يكنْ أغلبُها خاطئا!

ولكنْ مَن يهتمّ؟

فلْيَمْضِ مَن يريدُ في طريقِ المجتمعِ بأمان، ولْتصبحِ الراقصةُ شريفة، والفاجرةُ فنّانة، والعاريةُ أنيقة، والعابثُ مُتحضّرا.

ولْنَبْقَ نحنُ أصحابَ المبادئ ــ إنْ كنّا كذلكَ حقّا ــ في نظرِ هؤلاءِ خارجينَ عن حتميّةِ التطوّرِ في المجتمع، متخلّفينَ رجعيّينَ مُتطرّفين، إلى آخرِ مفرداتِ هذه السيمفونيّة!

---

[1] في رأيي أنَّ الزواج السّريّ، حتَّى لو كان على يدِ مأذون وبقسيمةِ زواجٍ حكوميّة، هو نوعٌ من الزنا، لأنَّ هدَفَه المتعة، وليسَ تكوين أسرةٍ وإنجاب أطفال والمضيّ في حياةٍ مشتركَةٍ سويّةٍ مُشهرة.

[2] إن وجد مثلُ هذا الرجلِ وهذه المرأة، فأنا أنصحهما بالذهابِ فورًا إلى الأطباءِ النفسيّين ومختصّي الأمراض التناسليّة، لأنَّ شيئا ما ليس طبيعيّا كما خلقه الله سبحانه!

١٣- الشّـــكّ

لمْ يحضرْ (إياد) إلى الكلّيةِ لليومِ الثاني على التوالي.
يا لها من حسرة!

*****

رنَّ هاتفِي فأجبته بلهفـــة مُتوقّعةً مَن أبتـــغي، فما كانَ إلا أن جاءني صوتٌ ساخرٌ يقول:

- مرحبًا.. يبدو أنّكِ كنتِ تتوقّعينني، فالجرسُ لمْ يَكَدْ يرنّ!

- [بسخط]: يتوقّعُ المرءُ الأسوأَ أحيانا.

- ها ها.. رُوحٌ مَرِحَة.

- [وأنا أسحقُ أضراسي]: (كريم شاكر).. ماذا تريدُ في هذه الليلةِ الأكثرِ شاعريّةً من ملامحِك؟

- أه.. إنّكِ تُغازلينني!

تنهّدْتُ دون أن أتكلم، فواصل:

- ألن تسأليني حتَّى: لماذا تغيّبتُ اليوم؟

- "حتَّى يَلِجَ الجملُ في سَمِّ الخِياط".

- كانت (أحلام) تريدُ إنهـــاءَ بعـــضِ الأوراقِ الخاصّـــة، وقَـــد طلبَتْ منّي مصاحَبَتَها، خوفًا من مجاهلِ التعقيداتِ الروتينيّة.

- [بنوعٍ منَ التضايق]: ولمـــاذا أنتَ بالـــذات؟.. لمـــاذا لمْ تصطحبْ أحدَ أقاربِها؟.. هل يتّفقُ هذا مع أخلاقِكَ التي تَتَشدّقُ بها؟

- هل تغارين؟

- أنا؟!.. أنا أغار؟!!.. هأ!

- لا تتزعجي هكذا.. لا تدلُّ الغَيْرةُ دائمًا على الحبّ.. كثيرًا ما تدلُّ على رغبةٍ أنانيّة في التملُّك.. يعني: تحبّينَ أن أظلَّ أسيرك حتَّى آخـــرِ الدهر، وإن لمْ أمثّلْ لكِ شيئًا ذا بال.

- [بضجر]: هل اتصلْتَ بي خصوصًا، لمثلِ هذا الكلامِ الفارغ؟

- طبعًا لا.. مجرّدُ مقدّمة.

- إذن ماذا؟.. هل ستسألُني عن مقالِك؟

- لا.. أنا متأكّدٌ أنكِ قَرَأْتِه، ومتأكّدٌ أكثرَ أنَّ عنادَكِ في التمسُّكِ بالخطإ، سيجعلُكِ تقاومينَ اقتناعَكِ به.

- [زفرْتُ في حدّة]: دعْنا من كلامِكَ المستفزِّ هذا، وقُلْ مباشرةً ماذا تريد.

- [بسخرية]: جئتُ لكِ بأخبـــارٍ جديـــدةٍ عن صديقـــكِ ــ أعـــني حبيبَك ــ (إياد).

انشحذَ انتباهي له.

- لقد بلغني عن مصدر موثوق به، أن (إيادَكِ) هذا، شوهد هابطًا من إحدى البناياتِ بصحبةِ (سوسن).. أو (سوزي) كما تُحبّينَ تَدليلَها!

- [بغضب]: هل بدأْتَ افتراءاتِك؟

- أنا لا أفتري.. أنا لمْ أحضـــرْ إلى الكلّيةِ اليوم، ولكنْ أجزمُ أنَّ (سوزي) هذه لم تحضرْ هي الأخري.. وطبعًا (إياد) كذلك، فقد كانا معًا في منتهى الانسجامِ والبهجة، كما نقل لي من رآهما.. [وبلهجةٍ هاكمة]: وبسؤالِ البوّاب، اتضحَ أنَّ الحاجَّ (إياد) يستأجرُ شقّةً مفروشةً في هذه البناية، ولا يأتي إليها إلا بصحبةِ الفتياتِ (بناتِ الأفاعي) على حدِّ تعبيرِ الرجل!

- [في غضبٍ هادر]: أنتَ كاذبٌ حقير.. أتتخيّلُ أنّكَ بمثلِ هذه الافتراءاتِ ستستطيعُ مسَّ مكانتهِ في قلبي؟.. أنتَ واهمٌ.. واهمٌ وسفيه.

وأغلقت الخط في وجْهِـــه، والدَمُ يغلي في عـــــروقي، والشّـــــكُّ يُعربدُ في أعماقي كشيطانٍ مريد، قبلَ أنْ أدفنَ رأسي في وسادتي، وأنفجرَ بالبكاء.

*****

كُنْتُ جالسةً بمفردي حزينةً، على أحدِ المقاعدِ المنتشرةِ في حـــرمِ الجامعة.

لمْ يَحْضرْ (إياد) أيضًا لليومِ الثالثِ على التوالي.. ترى أينَ هُـــو الآن؟.. إنَّ (سوسن) لم تحضرْ أيضًا.. لقد بدأَ فأرُ الشّـكِّ يعبـثُ بقلبي.

إذ ذاك، ألفيتُ (رانيا) تُلقي السلامَ وتجلسُ بجانبي:

- هاي!.. أنتِ.. الذي أخذَ عقلَك!

تنهّدْتُ في صمت.

- [يرفق]: ماذا هناك يا (سماح)؟.. أهو (كريم) أيضًا؟

- (كريم)، وأنتِ.. وحتَّى (إياد) نفسُه.. الكلُّ يحاولُ تشكيكي في قلبي.. أشعرُ أنّي ضائعة.. أشعرُ بانعدامِ وزنٍ عجيب.

- كوني أنتِ يا (سماح).. اعرفي من أنتِ وكونيها.. حدّدي ماذا تريدين وهل إذا ما كانَ الأفضلَ وافعليه.

- [ابتسمْت]: لقد بدأ حَـديثُكِ يتغيّـر نوعًا.. ماذا فعـلَ بك (رفيق) بالضبط؟

- لم يفعلْ شيئًا مباشرًا.. خذي الحجابَ مثلا: لقد تحدّثَ أمامي مرَّةً واحدةً عن إعجابِه بالفتاةِ المحتشمة، فلمْ أكذّبْ خبرا.. ليتَكِ

تعرفينَ كم سعِدتُ بسعادته، حينما فوجئَ بي أرتدي الحجابَ في اليومَ التالي.. قالَ إنّه يدينُ لي بواحدة.. مع أنّي التي تدينُ لَه بالآلاف.. لقد كُنْتُ ضالّةً واهتديتُ إليه.. كأنّي سرْتُ لآلافِ السنينَ في صحـــراءَ قاحلةٍ جرداء، يقتلُني لهيبُ شمسِها، ولا ليلَ يغشاها ولا شتاء.. ثمَّ أخيرًا وجدْتُ نفسي على شاطئِ بحيرةٍ صافية، وسْطَ جنّةٍ مورفةٍ فيحاء.. إنَّ وصولي إلى (رفيق) ليسَ إلا بدايةَ رحلةٍ طويلة، ولكنْ بصحبـــةِ أنيسٍ رقيق، يُشعـــرُني بالأمانِ والدعـــم.. يـــاااه!.. أشعرُ بالسكينة.. بالراحـــة.. بزهدٍ في مظاهرِ الحياةِ التافهة: (الموضةِ) والزيِّ والشعرِ والمساحيقِ والعطورِ والحفلات.. بدأتُ أرى الدنيا بجدّيّةٍ دونَ أن أفقـــدَ متعتَها.. أريـــدُ أن أعوّضَ ما فاتني في حَـــقِّ الله، كما أريدُ أن أهتمَّ بدراستي وطموحاتي.. أتمنّى أن تعيشي مثلَ هذا الشعورِ يا (سماح).

- [بحزن]: وماذا بيدي لأفعلَه؟

- ابحثي عن طريقٍ واضحٍ مضمونٍ ولا تتردّدي فيه.. أتدرينَ لمَ تنتابُني هذه المشاعر؟.. لأنَّ ضميري مستريـــح.. (رفيق) خطيبي.. ملكي.. واللهُ سبحانَه، والناسُ والدنيا كلُّها لا يستنكرونَ حبَّنا.. إنها عَـــلاقةٌ في النور، لها هدفٌ وطريقٌ مرسوم، لهذا أشعرُ بالثقةِ والأمانِ والاطمئنان.

- هناكَ شيءٌ أودُّ لو سألتُكِ عنه.

- سَــلي.

- لماذا صمتِّ حينما حكيْتُ لكِ ما حدثَ بيني وبينَ (إياد) و(كريم) ليلةَ خِطبتِك؟

- [مطّتْ شفتيها]: أن تحكيه لي وصدرُكِ يَحيكُ به، لأكبرُ دليلٍ على يقظةِ ضميــرِك.. لقد كَــرهتِ ما حَــدث، وأردْتني أن أؤنّبَــكِ عليــه، حتَّى تشعري ــ ولو بمقدار ــ بأنّكِ نِلْتِ عقابا.

- لهذا اكتفيتِ أنتِ بالصمْتِ التامّ؟

- لقد فرغَ ما عندي من وعظ، ولن أكونَ أحرصَ عليكِ من نفسِك.

- [بصدرٍ حَرِج]: أحيانًا يا (رانيا) يكونُ كلامُكِ ثقيلا على نفسي.

- [بهدوء]: وأنا لا أنوي المزايــدةَ عليكِ به.. لا وعــظَ بعــدَ اليــومِ يــا (سماح).

- ستتركينني أغرَق؟

- لن تغرَقي.. لقد التهمْتِ طبقةَ اللذّةِ التي تُغطّي سطحَ الحبّ، وبدأتِ تتذوّقينَ الطبقةَ المُرّة.. وإذا كانت لذّةُ الحبِّ مُسكرةً ويُخشى على المحبّينَ منها، فإنَّ مرارتَه حكمة، تضعُ المرءَ في مصافِّ المفكّــرينَ والفلاسفة.. الألمُ سيُعلّمُكِ كيف تحاولينَ

اجتنابَه.. اليومَ فقط يا (سماح) وصلْتِ سنَّ الرشدِ في الحبّ، ولم تعودي تحتاجينَ إليّ.

وربّتَتْ على كتفي وانصرفتْ، وأنا شاردةٌ في نبوءتِها.

لقد بدأتُ أتذوّقُ طبقةَ الحبِّ المرّة.

طبقةَ العذابِ والألمِ والحكمة.

ولا يدري أحدٌ إلى متى.

*****

شَعَرْتُ أنّي وحيدةٌ في الكلّيّة، فـ (إياد) لمْ يَحْضرْ أيضًا لليومِ الرابعِ على التوالي.

و(كريم) لم يحضرْ.. و(أحلام) و(سوزي) لمْ تَحضرا!

و(رانيا) كانت مع (رفيق) في رحلةٍ تُقيمُها الجامعة، لمْ أشتركْ فيها حينما فُتحَ بابُ الاشتراكاتِ منذُ أسبوع، لأنَّ (إياد) رفضَ الاشتراكَ.

وطيلةَ اليوم، كانت عيناياَ تقعانِ في مستنقعِ عينيْ (صفاء) اللزج.

كلُّ شيءٍ في الكلّيّةِ صارَ مُملًّا!

*****

وقفَتْ أمامي (صفاء) فجأةً، في الاستراحةِ بينَ محاضرتيْن، وقالتْ بابتسامةٍ مُتهكّمة، وهي تتّخذُ مكانَها بجواري على المُسطّحِ الأخضر:

- لقد انتظرْتُكِ طويلا!

- [وأنا أبادلُها التهكّم]: انتظرتِني؟!

- أن تسأليني.

- حديثُكِ يبدو كالفوازير!

- على العكس.. إنّه سيحلُّ كثيرًا من الفوازير.

- [بجمود]: ماذا تريدينَ بالضبط؟

- [وعيناها تتوهّجان]: أن تسأليني لماذا ابتعدْنا أنا و(إياد)!

- [رَفَعْتُ رأسي بِشَمَم]: لا أعتقدُ أنّه يعنيني.

- [بسخرية مُرّة]: أستطيعُ فهمَ هذا.. لقد كُنْتُ أعيشُه ذاتَ يوم.

- [بحدّة]: اسمعي يا (صفاء).. أنا لستُ على استعدادٍ للدّخولِ في مُهاتراتٍ فارغة.. الأفضلُ لي ولكِ، أن تتركَ إحدانا الأخرى في سلام.

- [غامتْ عيناها بسحابةٍ كآبة]: لقد انعدمَ هذا السلامُ بالنسبةِ لي.. إلى الأبد.. [واستعادتْ نفسَها] ولكنّي أريدُ مساعدَتَكِ حتَّى تحتفظي به.

- [بسخرية]: هل سأبدأُ الاستماعَ إلى أكاذيب؟

- بل ستستمعينَ إلى ما تعرفين، وترفضينَ أن تُصدّقيه.. هــل تعــرفينَ أينَ (إياد) الآن؟

- .....!

- في الرحلة.. (سوزي) أخبرتْني أنّه اشتركَ فيها بآخرِ لحظة.. من أجلِ أن يكونا معًا!

- [مصدومةً]: مستحيل!.. أنتِ أنتِ...

- لا داعي للإهانة.. اذهبي إلى (رعايةِ الشباب)، وراجعي أسماءَ المشتركينَ فتعرفي.

عقَدَتِ الصدمةُ لساني، فواصلَتْ:

- لن أقولَ لكِ إنَّ (إياد) يتسلّى، فهذا أوضحُ من أن أقول.. ولكنّي سأوضّحُ لكِ شيئًا تحبّينَ أن تَتَعامَيْ عنه.. (إياد) أنانيّ.. (إياد) يعيشُ في دولةِ نفسِه.. إنّه يعتقدُ الآنَ أنّه يُحبُّك، ولكنَّ الحبَّ يسيرُ لديه في اتجاهٍ أوحد: الأخذ.. الامتلاك.. الاستمتاع.. لا تنتظري إذن أبسطَ مفاهيمِ الحبِّ كالوفاء.. ففي نفسِ الوقتِ الذي يترنّمُ فيه بكلماتِ حبِّك، يقضي لياليه في أحضانِ الغانياتِ الساقطات، دونَ أن يعتبرَ في هذا خيانةً لك.. إنّه فقط نوعٌ من التسلية، تمامًا كما يتسلّى الآنَ مع (صفاء).

- [في حنقٍ ساخر]: واضحٌ أنّكِ تفهمينَ (إياد) كثيرًا.. رائع.. ولكنّي لم أفهمْ بعدُ ما السببُ الذي حدا بكما إلى الافتراق!

- [بصوتٍ مختنق، وهي تخفضُ بصرَها]: هو الذي ابتعدَ عنّي.

- [بشماتة]: لا ريبَ أنَّ لديه أسبابَه.

- [تردّدَتْ طويلا، قبلَ أن ترفعَ إليَّ عينينِ مبللتينِ بالدموع]: لقــد.. لقــد حصلَ على.. على ما يريد.

- [هوى قلبي بينَ قدميّ]: ماذا تعنين؟

- [بسخرية، ودمــوعُها تسيل]: أعتقدُ أنّكِ أذكى مِــن أن تســألي مثلَ هذا السؤال.

- [في شكّ، وأنا أبتلعُ لعابي بتوتّر]: وما الذي يدفعُكِ لمثلِ هذا القول؟.. أعني أنّه من غيرِ المنطقيِّ أن تقولي هذا عن نفسِك!

- [بسخط]: وهل تعتقدينَ أنَّ هذا سرّ؟.. إنَّ كلَّ فردٍ في الدفعةِ يتغامزُ به، حتَّى وإن لم يكُنْ متأكّدا.

- لا.. أعتقدُ أنّكِ تلعبينَ لُعبةً لا أفهمُها.. إنّكِ تُحاوليــنَ تشويهَه في نظري، حتَّى يعودَ إليك.

- [بصوتٍ غاضــبٍ وعينينِ زائغتين، وهي تُمســكُ رسغي بقــوّة]: أيّتُها العمياءُ أفيقي.. أفيقي قبلَ فَــواتِ الأوان.. [وانخرطــتْ في البكاءِ فجأةً، وتركتْني لتدفنَ وجهَها في كفّيها]: قبلَ فواتِ الأوان.

دارَ عقلي في رأســي، وتنازعتْني أحاسيــسُ شتّى، مــا بيــنَ إشفــاقي عليها، وتكذيبي لها، فلمْ أشعرْ إلا وأنا أقــدّمُ لها منــديلا ورقيّا، تناولَتْه في صمــت، وحاولتْ معالجةَ دموعِهــا بأصــابعَ عصبيّة، قبلَ أنْ تقولَ بجمود:

- على العموم، أنا لا أرجو منكِ الآنَ إلا شيئًا واحـــدا: أن تعديني أن يظلَّ هذا الحوارُ سرًّا بيننَا.

- [بصدقٍ عميق]: أعدك.

- [بسخرية]: وإن كُنْتُ أظنُّ هذا عديمَ الجدوى.

- [بتعاطفٍ وحَرَج]: يمكنُ إخفاءُ هذا.. أعني عندَ الزواج.

- [بنفسِ السخرية]: أعرف.. عن طريقِ تلك العمليّاتِ الجراحيّةِ الرخيصة، التي تُعيدُ للفتاةِ بكارتَها.. هأ!.. ليتَـــها تعيدُ الشـــرفَ ولا تُعيدُ البكارة!.. لا أعتقدُ أنّي أستطيعُ الاستمرارَ في طريقِ الخداعِ والغشّ.. إنّه نوعٌ آخرُ من الإجرام أكثرُ بشاعةً مِن جُـــرمي الأوّل.. ما ذنـــبُ إنســـانٍ نبيلٍ يحلمُ بزوجةٍ شريفة، ليعيشا حياةً طاهرةً نظيفة، أن أخدَعَه بمثلِ هذه الطريقة؟

- ولكنّكِ مظلومة.. (إياد) هو الذي...

- مظلومة؟!!.. يا لها من كلمةٍ يسيرةٍ نخدعُ بها أنفسَنا.. مظلومةٌ ومخدوعةٌ وبريئة!.. كلا يا عزيزتي.. لقد حدثَ كلُّ شيءٍ بإرادتي الحرّة.. مهما كانت درجةُ تأثيرِ (إياد) عليّ، فهو لم يجبرْني على شيء.. إنّه حتَّى لم يتحدّثْ مرَّةً واحدةً عن الزواجِ حتَّى أقولَ إنّه وعدني به.. لقد أخذَ فقط ما منحتُه له: أغلى ما عندي، وبلا ثمَن!.. [وابتسمَتْ بحزنٍ وشرود]:

أتعرفين؟: (إياد) نفسُه لا يمكنُ أن يتزوّجَ واحدةً مثلي.. إنّه لن يثقَ بامرأةٍ بسهولة، فهو لمْ يعرفْ غيرَ أراذلِهــنّ، وحينَ يفكّرُ في الزواج، فسيختارُ واحدةً مختلفةً تمامًا، حتّى لا يعيشَ في جحيمِ الشّك.. آه.. نسيتُ أن أخبركِ أنَّ له علاقاتٍ مع بعضِ المتزوّجات.. لقد أطلعني على حقيقتِه كلِّها ولمْ يُبالِ.

مادتِ الأرضُ بي ولمْ أستطعِ النطق، فواصلَتْ هي:

- لن أتزوّجَ يومًا.. لن أخدعَ رجلا نبيلا.. لا أدري لماذا أقولُ لكِ كلَّ هذا.. ربّما لأنّه يكادُ يخنُقُني.. وربّمــا لأنّي لا أريدُ لكِ مثلَ هذا المصير.. على العمومِ لن أُثقلَ عليكِ بعدَ الآنِ أبدا.

ونهضَتْ، فنهضْتُ وساقاي تكادانِ تعجزانِ عن حملي، وحاولْتُ أن أقولَ لها أيَّ شيء، ولكنّها ابتسمتْ بحزن، وتركتْني ومضَتْ، وأنا في ذهولٍ عنيف، وحالةٍ هي الجنونُ بعينِه.

*****

عشْتُ أيّامًا كالمجنونة.

لقد تأكّدتُ تمامًا ممّا قالتْه (صفاء).

ليسَ فقط لأنَّ (رانيا) حكَتْ لي وقلبي يتمزّق، عَــن كلِّ المهــازلِ التي فعلَها (إياد) و(سوزي) في الرحلةِ على الملإ.

ولكنْ لأنَّ أسبوعًا لم يَكَدْ يمرُّ على حواري مع (صفاء)، حتّى هوى على الدفعةِ كلِّها خبرٌ كالصاعقة:

لقد انتحرَتْ (صفاء).

*****

حاولتْ سيّارةٌ مسرعةٌ أن تصدمَ (كريم)، لكنّه تفاداها بأعجوبة.
(إياد) يتّضحُ لي أكثرَ فأكثر.
أكادُ أجنّ.. أتمنّى لو ينفجرُ رأسي فجأةً، كبالونةٍ تافهة، وينتهي كلُّ شيء.
إنّني حتَّى لا أبكي.. أعتقدُ أنّني في المرحلةِ التي قرّرتْ فيها (صفاء) أن ابتلاعَ الحبوبِ المنوّمة، والنومَ الأبديَّ في سكون، خيرٌ لها من الاستمرارِ في دنيا الآلام.
ولكنْ الأمور ليست بهذه البساطة للأسف.. إنّها ستُبعثُ على ما بَخَعَتْ عليه نفسَها، لتواصلَ العذابَ في جحيمٍ لا ينتهي.
لقد خسرتِ الدنيا والآخرة.
لا مفرَّ إذن من مستنقعِ الآلام.. الدنيا.

*****

حاولْتُ أن أكرهَه فكرهْتُ نفسي!
حاولْتُ أن أهرُبَ من لقائِه في الكلّيّة، فوجدْتُني أبحثُ بعينيَّ عنه في جنون!
لمْ أعُدْ أعرفُ ماذا أريد.. لمْ أعُدْ أعي ما يحدثُ لي.

*****

ثمَّ رأيْتُه.. ورأيتُ في عينيه نفسَ الحبِّ والحنان.. وسمعْتُ منه نفسَ الكلماتِ المُسكرة.
لهذا صمتٌ عن أنفثَ كلَّ بركانِ الشّكِّ الذي يحرقُ جوفي، في وجهِه.
لقد قرّرْتُ أن أكتشفَ من هو (إياد) الحقيقيّ.

لهذا قُلْتُ له فجأةً، وأنا أصطنعُ ابتسامة:

- (إياد).. أريدُ أن نكونَ معًا بمفردِنا.

قالَ مُتهلّلا:

- بالتأكيدِ يا حبيبتي.. هذا ما دأبْتُ على طلبِه منكِ دوما.

- إذن.. أنا موافقة.

- ياه!.. حقًّا؟!.. و.. ولكنْ أينَ نتقابل؟

- [بلا تردّد]: في شقّتِك.. أعتقدُ أنّني.. أثقُ بكَ كثيرا.

التمعتْ في عينيه نظرةٌ عجيبة، حاولْتُ أن أهرُبَ منها، فرأيتُ (كريم) على البعد، واقفًا يرقُبُنا، والغيرةُ تُقعقعُ في عينيه.

١٤- الحَيْرَة

متى، وأين؟

لمْ أَعُدْ أذكر.. لمْ يَعُدْ يُهمُّني.

وجدْتُه يتأبّطُ ذراعي، ونحنُ نعبرُ بوّابةَ البنايةِ حيثُ شقّتُه المفروشة.

رأيتُ في عينَيِ البوّابِ نظرةَ احتقار، فتردّدَتْ في ذهني عبارة: "بناتِ الأفاعي"، وأنا متأكّدةٌ أنها تدورُ في ذهنِه.

ولكنَّ شيئًا داخلي لمْ يهتزّ.. كنتُ مذبوحة.. ميّتةً بالفعل.

وصعدْتُ مع (إياد) إلى شقّتِه.

*****

قالَ لي بابتسامة:

- مرحبًا بكِ في عالمي الصغير.

نظرْتُ له في بلادةٍ ولم أَفُه.

لاحظَ شرودي فسألني:

- إيه.. ما بك؟

نظرْتُ له لحظة، ثمّ قلت:

- أريدُ أن أسألكَ سؤالا.

- سلي ما بدا لكِ.

وتحرّكَ مبتعدا وهو يُردف:

- ولكنْ دعينا أوّلا نشربُ كأسين.

سألته ببلادة:

- هل تشربُ الخمر؟

قالَ وهو يَلِجُ حجرةً أخرى:

- لقد أدمنْتُها في عينيك.

وأردفَ ضحكةً وتواري.

قلّبْتُ طرْفي في الردهةِ دونَ أن أري شيئًا.. كانت عيناىَ تغوصانَ فيـــه هُـــو، وفي كلِّ لحظةٍ كانتا تريانِ بعضَ ما عميَتا عنه.

الحزنُ.. الحيرةُ والتيه.. فقدانُ جزءٌ من الـــذات.. آهِ مـــا أعجـــزَ الكلمات!

عادَ ومعه كأسانِ دِهـــاقـــان، قَرّبَ لي إحـــدَاهما.. تركْـــتُ يَـــدَه ممدودةً وابتدرْتُه بالسؤال:

- هل تُحبُّني؟

- [تضاحكَ بدهشة] وهل هذا موضعُ شكّ؟

- هل تحبُّني؟

- [صمتَ وتفرّسَ ملامحي] ماذا هناكِ يا (سماح)؟

- هل تحبُّني؟

- [هتفَ بقوّة] أجل أجل.. أحبُّكِ.. أقسمُ إنّني أحبُّك.

سالتِ الدموعُ على وجنتيّ.

- (سماح).. ما الـــ.. ما الذي يضطرمُ في عمقِك؟

نكّسْتُ طرْفي ساعةً، قبلَ أنْ أرفعَه إليه وأسألَه في بطء:

- ماذا عن (سوزي).

بانَ في عينيه أنّه فهم، فابتسم قائلا:

- إمْ.. قولي إذن إنّكِ تغارين.

- [بحدّة]: هل تُحبُّها هي الأخري.

- [انفجرَ ضاحكًا]: أحبُّ (سوزي)؟.. أتمزحين؟.. إنّها مجرّدُ قمامة.

- [في عذاب]: لماذا إذن تترامى إليّ أخبارُكما معا؟

رشفَ من كأسِه رشفةً، وحاولَ أن يقدّمَ لي الكأسَ الأخرى فأزحتُ يدَه.. رشفَ رشفةً أخرى وقال:

- تلكَ مجرّدُ تسلية.

هوى جوابُه عليَّ كالصاعقة.. كانَ يتكلَّمُ ببساطةٍ مريعة.. لم يحاولْ حتَّى أن ينفي.. أن يكذب.. أن يحافظَ على مشاعري.. صـــرخْتُ فيه:

- تسلية؟

جرعَ كأسَه كلَّها، فاحتقنَ وجهُه، قبلَ أنْ يقول:

- أعني.. نوعا من المرح.

واتخذَ لنفسِه مجلسًا، وأشارَ لي قائلا:

- تعالَيْ.. هل ستظلّينَ واقفةً هكذا؟

وجرعَ الكأسَ الأخرى، قبلَ أنْ يضعَ الاثنتين جانبًا.

نظرْتُ له بذهول، وفهفهْتُ:

- مستحيل.. إنّكَ تُحطّمُ صورتَكَ لديّ تمامًا.. ودونَ حتَّى أن تراعي.

- [باستغراب]: لماذا؟

- لماذا؟.. أتمزح؟.. تعترفُ لي بالخيانةِ وتتساءل؟

- الخيانة؟.. مَن ذكرَ الخيانةَ هنا؟.. إنّه بعضُ اللهوِ فحسب.

- [صرخت]: هذا اللهوُ لا يتّفقُ مع حبّكِ المزعومِ لي.. المفروضُ أن تراعي غَيْرتي المحمومةَ عليك.

- [في ازدراء]: هذه مخلّفــاتُ العاداتِ الشرقيّةِ البائدة.. ليسَ معنى حبّي لكِ أن أفقدَ حريّتي في الاستمتاعِ بالدنيا.

- [مصدومة]: أيُّ منطقٍ هذا؟.. هل ترضى أن أطبّقَ أنا المثلَ معك؟

- [ببساطة]: بالتأكيــد.. هل تدخّلْتُ يومًا في طــريقةِ لبسِك، أو معاملتِكِ لزملائنا؟.. أنتِ حرّةٌ تمامًا في إدارةِ حياتِك.

- [و عقلي يدورُ في جنون]: ألا تشعرُ بالغيرةِ عليّ؟

- هل تَرَيْنَ أمامَكِ أحمق؟.. أيُّ غيرةٍ هذه؟.. كلُّ ما يُهمُّني هو أن تُحبّيني.. لا ضيرَ بعدَ هذا من بعضِ المرح.

صرخْتُ وأنا أرتجفُ من الغضب:

- أنتَ.. أنتَ إنسانٌ حقير.. تافه.

- [ضاحكًا في مرَح]: على العكسِ يا عزيزتي.. إنّني إنسانٌ يجيدُ الاستمتاعَ بحياتِه جيّدًا.. أمّا إذا أردْتِ رأيي بخصوصِ التفاهةِ فهاكِ.. إنَّ المرأةَ هي أكثرُ المخلوقاتِ تفاهةً على ظهرِ الأرض، ولولا هذا لما كانَ للدّنيا طعم.. تفاهةُ المــرأةِ هي التي تُثيرُ خيالَ الرجلِ وشهواتِه وتمنحُه المتعةَ واللهو.. انظري إلى نفسِكِ ومظهرِك.. ألمْ تقضي الساعاتِ أمامَ المرآةِ لتجعلي من نفسِكِ مجرّدَ شيءٍ يُبهجُني.. [وضحكَ في قوّة] لا تتكلّمي عن التفاهةِ يا عزيزتي، فأنتــنّ من ابتدعْنَها، وحمــدًا على

هذا.. فلــولا لُهاثُكنَّ وراءَ الموضاتُ لأفلسَ أصحابُ بيوتِ الأزياء، ولخربَ اقتصادُ العالمِ، القائمُ في معظمِه على مستحضــراتِ التجميــلِ والعطــورِ والأزياء، إلى آخرِ هذه السخافات.. لهذا يعملُ الرجالُ باستمرارٍ على إذكــاءِ هذه التفــاهة، وإقناعِ المرأةِ بأنّــها غايــةُ الدنيا وميْزتُها.. ها ها.. أنا أعتقدُ أنَّ شخصًا مثلي ــ تافهًا حقيرًا كما تدّعين ــ هو الذي أطلقَ شعاراتِ حرّيّةِ المرأة، ليجلبَ لنفسِه ولنا كلَّ هذه المتعة.. شكرًا له!.. لو لم يكُن فَعَلَها لفعلْتُها أنا.. ها ها.

كانت كلُّ كلمةٍ يقذفُها تهوي على رأسي كالمطرقة، فقلْتُ بذهول:

- مستحيل!.. إنّكَ تَهرِف.. لا يمكنُ أن يكونَ رأيُكَ في النساءِ بهذا الانحطاط.

- ها ها.. امنحيني سببًا واحدًا يجعلُني أغيّرُ رأيي في المرأة.. أيُّ امرأةٍ تعنين؟.. المرأةُ العصــريّةُ الحــرّة، التي لا تهتمُّ إلا بجســدِها، ولا أجدُها إلا في صالاتِ (الديسكو) وأماكنِ اللهوِ والإغراء؟.. قولي لي كم نسبةُ الطبيباتِ والمهندساتِ والنســاءِ المتميّزات، أمــامَ المغنّياتِ والممثّلاتِ وعارضاتِ الأزياءِ والراقصاتِ والعاهرات؟.. أينَ المرأةُ بالنسبةِ للرجلِ في نواحي الفكرِ والثقافة؟.. كم عددُ المفكّــراتِ والأديبــاتِ في العالم؟.. كم عددُ الشاعرات؟.. قلّةٌ، مع أنَّ المرأةَ أكثرُ عاطفةً من الرجل، والمفروضَ أن تكونَ أكثرَ شاعريّةً منه.. وملايينُ الأمثلةُ غيــرَ هذه.. لا يا عزيزتي.. أنا لستُ تافهًا أبــدا.. أنا

إنسانٌ مُثقّفٌ جدّا، وخبيــرٌ مُحنّكٌ بأعمــاقِ النساء، وأستطيعُ التلاعبَ بأيٍّ واحدةٍ منهنَّ كما أشاء.

قلتُ ودموعي تنهمرُ بغزارة وقلبي يتمزّقُ شرَّ مُمزَّق:

- تمامًا كما تلاعبْتَ بقلبي.. وكما تلاعبْتَ بالمسكينةِ (صفاء).. لقد قتَلْتَها يا (إياد).. قتلها قلبُكَ المخادعُ القاسي القذر.

نهضَ وقالَ بحزم:

- أعترفُ أنّني تلاعبْتُ بــ (صفاء).. ولكنّي قَطُّ لم أتلاعبْ بكِ.. صدّقي أو لا تفعلي: إنّكِ الإنسانةُ الوحيدةُ التي اهتزَّ لها قلبي.

- [بسخريةٍ مريرة]: لمْ يَعُدْ يَنْفع.. لقد كشفتَ لي كلَّ قواعدِ اللعبة.

اقتربَ منّي، وربّتَ على وجنتي هامسًا:

- هل هذا ما يقولُه عقلُكِ أم قلبُك؟

أزحتُ يَدَه، وهتفْتُ في عنف:

- أبعِدْ يدَكَ القذرةَ عنّي.

وحاولتُ العدوَ نحوَ بابِ الشّقّة، ولكنّه جذبني من ذراعــي قــائلا بقسوة:

- إلى أينَ يا ملاكي؟.. لمْ نُنْهِ كلامَنا بعد؟

حاولتُ مقاومتَه، ولكنَّ عينيه اشتعلتا بالشراسة، وقالَ في حدّة:

- أتعتقدينَ أنّكِ ستخرجينَ من هنا ببساطة؟

وحاولَ الاعتداءَ عليَّ، وأنا أقاومُه بضراوة.

كانت أبشعَ لحظاتٍ عشْتُهـــا في حياتي كلِّها، وكُـــلٌّ أملي أن أصلَ إلى بابِ الشّقّـــةِ وأهربَ من هذا الجحيم.

ولكنْ ذلكَ كانَ يبـــدو مستحيـــلا، مَـــع الوحشيّةِ التي واجهني بها، حتَّى كادَ القنوطُ يقرُّ في قلبي و...

*****

فجأةً، فُتحَ بابُ الشّقّةِ بدويٍّ مهول، فتركني (إياد)، لنلتفت.

وعلى عتبةِ البابِ كانَ آخرُ شخصٍ أتوقّعُه في هذه اللحظة.

(كريم شاكر)، والغضبُ يصنعُ مـــن ملامحِـــه لوحـــةً شـــيطانيّةَ التعبيرات.

غضبٌ تأجّجَ وتوهّج، حينما وقعتْ عينُه على ملابســـي الممزّقـــة، والخدوشِ التي تملأُ وجهي، فصرخَ بعنف:

- أيُّها الحقيييييير.

وانقضَّ على (إياد) بطريقةٍ أفزعتني أنا نفسي، وركله في وجهِـــه ركلةً أطاحَتْ به إلى الحائطِ من خلفه، ولكنّ (كريم) لم يتوقّف، بل قفزَ إليه، وراحَ يلكمُه في عنفٍ صارخًا:

- هذه من أجلِ (سماح).

- وهذه من أجلِ محاولةِ قتلي.

- وهذه من أجلِ (صفاء).

- وهذه هديّةٌ منّي لك.

ولم يُفلتْه إلا ليتكوّمَ على الأرضِ فاقدَ الــوعي، ووجهُــه مغطّــىً بالدماء.

ولثوانٍ هيمنَ الصمت، إلا من لهاثِ أنفاسِه، ولوعةِ تهانفي، وأنــا في منتهى الخزْيِ والعذاب.

هذا قبلَ أنْ يخلعَ (كريم) سترتَه الجلديّة، ويضعَها حول كتفيّ، ثــمَّ يجذبَني من يدي بقسوة، لمغادرةِ المكان.

غادرنا البناية، واستوقفَ هو إحدى سيّاراتِ الأجرة، لتنطلقَ بنــا إلى منزلي.

وخلالَ كلِّ ذلكَ لم يوجِّهْ إليّ نبْسة، ولم ينظرْ لي، ولمْ أتوقّفْ أنــا عن البكاء.

وعندما وصلتِ السيّارة، نقدَ السائقَ أجْرَه، وسار بجــانبي حتَّــى مدخلِ البناية، حيثَ توقّفَ وقالَ بجمود:

- من حسنِ حظّكِ أنَّ (رفيق) اتصلَ يسألُ عنّي.. وفي ثانايا كلامِه أخبرني أنّكِ ذهبــتِ إلى (رانيا) لتخــرجا سويّا.. لعــبَ الشّكُّ برأسي، فاتصلْتُ بــ (رانيــا)، ومِــن خلالِ حواري معهــا استشففْتُ أنّــكِ لستِ عندَها.. اتصلت على هاتفك المحمول أكثر من مرة فلم تردي، فهرولْتُ كالمجنونِ إلى المكانِ الوحيدِ الذي أخشى أن تذهبي إليــه.. ومن البوّابِ عرفْتُ أنَّ فتاةً تنطبقُ عليها مواصفاتُكِ قد صعدتْ مع (إياد)

لشقّته.. قفزتُ الدرجاتِ في هستريا، واقتحمتُ الشّقّةَ في الوقتِ المناسب.

ازددْتُ بكـــاءً، ولم أقــوَ على النظرِ في وجهِه، فنكّسْتُ رأسي في مذلّة، بينما واصلَ هو:

- لن أسألَكِ عن سببِ ذهابِكِ معه، ولا ما الذي كانَ سيحدثُ لو تأخّرتُ بضعَ دقائق، ولن أعاتبَكِ على شيء.. كلُّ ما سأقولُه، هو أنَّ بإمكانِكِ الآنَ أن تطمئنّي.. لقد نفّذتُ ما وعدْتُكِ به، وأنقذتُكِ من بينِ مخالبِ هذا الكلـــب.. تأكّدي أنّي لن أتعرّضَ لكِ بعدَ الآنِ مطلقا.. الوداع.

وتركني وانصرف، وأنا في دوّامةٍ بلا قرار.

*****

محطّمةً، مُنهارةً، أمضيتُ أسبوعًا كاملا في الفراش، ومـــا حـــدثَ تلك الليلةَ لا يبرحُ مُخيّلتي قطّ.

فقدْتُ الثقةَ في نفسي.. في الناس.. في الدنيا.

فقدْتُ شهيّتي للطعام، وجرعْتُ كئوسَ المرارةِ والدموع.

لا أصدّقُ ما حدث.. لا ريبَ أنّه كابوس.. كابوسٌ بشع.

*****

لمْ يتّصلْ (إياد).. لمْ يتّصلْ (كريم).

(رانيا) و(رفيق) يحاولانِ انتشالي ممّا أنا فيه.

لمْ أستطعْ أن أبوحَ لـــ (رانيا) بما حدث.. خشـــيتُ أن أرى فـــي عينيها نظرةً لائمة، تحمل معنى: "ألمْ أحذّركِ من هذا دومًا؟".

يكفيني ما أشعرُ به من عار.

*****

العجيبُ أنَّ مَن ساعدني على التماسُكِ كانَ (كريم)!

كانَ قد نشرَ مقالا في مجلّةِ الجامعة، عنوانُه: "المرأة".

وكانَ ممّا قالَه فيه هذه الفقرات:

"بعضُ الناسِ يَرى المرأةَ أساسَ كُلَّ الشرورِ في العالَم، وبعضُهم يراها جوهرَ الجمالِ والحنانِ والشِّعرِ والإبداع.. أعتقدُ أنَّ كليهما على حقّ، فكلمةُ المرأةِ لا يمكنُ أن تدلَّ على شيءٍ واحد.. المرأةُ إنسان، ولمْ يَجئْ إلى الدنيا، ولنْ يجيءَ إنسانانِ مُتطابقانِ في كُلِّ شيء.. لهذا يجبُ أن نتوقّعَ أن تتغيّرَ السماتُ العامّةِ للنساءِ والرجالِ من مكانٍ إلى مكان، وزمانٍ إلى زمان، ونفسٍ إلى أخرى.

هناكَ امرأةٌ شرّيرة، وهناكَ امرأةٌ طيّبة.. امرأةٌ فاسدة، وأخرى صالحة.. فاجرةٌ وطاهرة.. قاسيةٌ وحنون.. منضويةٌ ومتسلّطة.. إلى آخرِ ما يمكنُ أن يجولَ بخاطرِنا من الأضداد.

بهذه البدايةُ أنا أقرُّ مبدأً هامّا: رجلا كانَ أم امرأة، فإنّه إنسانٌ، لمْ يَخْترْ جنْسَه، ولا يُمكنُ اعتبارُه مُتفوّقًا أو متميّزًا، لمجرّدِ بعضِ الاختلافِ في النشاطِ الهرموني!"

"المرأةُ حرّة، لأنّها كِيانٌ إنسانيّ، تحتاجُ إلى البحثِ عن ذاتِها، واكتسابِ قُدراتٍ عديدة وتحقيقِ سعادتِها.. وهي في رحلتِها الإنسانيّةِ تحتاجُ إلى المعرفة، لأنّها بها تصلُ لنفسِها فالعالَمِ فاللهِ سبحانَه.

ولكنَّها يجبُ ألا تخرجَ عن فطْرتِها، حتَّى لا يتشوَّهَ كِيانُها، فتصيرَ مسخًا: لا هي رجلٌ ولا هي امرأة.

ويجبُ ألا تخــرجَ عَــن أوامرِ ربِّها، حتَّى لا تفقدَ هدَفَها الأساسيَّ في الدنيا، واحترامَها لذاتِها وسلامَها النفسيّ، وحتَّى لا تفقدَ نصيبَها من الآخرة."

"حرّيّةُ المرأة ــ ككلِّ حرّيّة ــ دائرةٌ مغلقةٌ واسعة.. تتحرَّكُ داخلَها كمــا عنَّ لهــا، ولكــنْ لا تتعدّى مُحيطَها، هَــذا الــذي تُشــكّلُه التزاماتُها نحوَ خالقِهــا ومجتمعِهــا وأهلِهــا وحبيبِهــا وزوجِهــا وأولادِها."

"حينما أتنازلُ عن جُــزءٍ من حرّيّتي بحرّيّتي، فأنــــا مــا زلــتُ حرّا.. وحينما أمنحُ هذا الجزءَ لمنْ أحبُّ، فأنا أشــتري إخلاصَــه وسعادتي، وجزءًا من حرّيّتَه، سيمنحُه لي عن التزامٍ متبادل."

قد لا تتصوّرْنَ ذلك، ولكنَّ هذا المقــالَ أعــــادَ الإبصــارَ إلــى بصيرتي، فقرّرْتُ أن أواجهَ أخطائي، وأن أعودَ إلى الحياة.

*****

في الكلّيّة، تحاشاني (كريم).

إنّه حتَّى تحاشى معظمَ الثّلّة، ما عدا (رانيا) و.. (أحلام).

أعترفُ أنّي شعرتُ بشيءٍ من الغَيــرة، وأنا أرى اهتمامَها الجليَّ به رغــمَ أنَّ الحزنَ قد استوطنَ عينيه، ورغمَ أنّه كــانَ يُعاملُهــا بوقارٍ وتحفّظ.

أمّا (إياد)، فقد تجاهلني تمامًا، وقد بدا جليًّا أنّه بــدأَ اللعبــةَ مــع (سوسن).. لقد أخذَتْ هي مكاني، وأخذْتُ أنا مكانَ (صفاء).

*****

ما زلْتُ أحبُّه.. إنّني أكرهُ نفسي من أجلِ هذا، ولكنّي مـــا زلْـــتُ أحبُّه.

أعتقدُ أنَّ (إياد) قد لاحظَ هذا في نظراتي التي تحاولُ أن تهربَ منه بلا جدوى.

هو أيضًا ينظرُ إليَّ نظرةً لم أفهمْها.

لا.. ليستِ الشماتة.. ليستِ الحقد.. بـــل هـــي أشـــبهُ بـــالتمنّي.. بالاعتذار.

تبًّا لكَ يا قلبي.. لماذا تتعلقُ بمن يذبحُك؟!

*****

العداءُ مُستحكمٌ بيـــنَ (كريم) و(إياد).. عداءٌ صامتٌ حقًّا، ولكنّـــه يتلظّى في العيون.

ولكنَّ (إياد) لمْ يُقدمْ على ما يُمكنُ أن يستفزَّ (كريم)، خاصّـــةً وأنَّ بصمـــاتِ (كريم) ما زالتْ محفورةً على ملامحِه!

*****

كتبتُ رسالة لـــ (كريم) على هاتفي أقولُ فيها:

- أعدُكَ أن أعودَ كمـــا كُنْت.. آراؤكَ أنارتْ لي ما أظلمَ في نفسي.. ولكـــنّي سأصارحُكَ بشيءٍ غبيّ: إنّني ما زلْتُ أحبُّ (إياد)، رغمَ كلِّ ما حدث.

كتبْتُها، وهممْتُ بإرسالها، ولكنْ عُدْتُ وتردّدْتُ فحذفتها.

*****

أريدُ أن أضحكَ حتَّى أنفجرَ باكيةً!

حاولَ (إياد) الاقترابَ منّي اليومَ، ولمْ تقفْ دونَه حصونُ التــرابِ التي حاولْتُ صدَّه بها.

وكانَ عَرْضُه كالتالي:

- لا أعترضُ على أن تمنعيني الاستمتاعَ بكِ، ولكنْ من حقّي أن أحصلَ على المتعةِ بطرقٍ بديلة.. فَلْنتحــابَّ كما شئنا، ولكنْ دونَ أن يمسَّ أحدُنا حرّيّةَ الآخر!

يا له من عرضٍ مُغرٍ!

بالطبعِ عربدَ الحنقُ في داخلي، وتركتُه وانصرفْت.

ولكنَّ قلبي الأخــرقَ ما زالَ يتلــوّى ويتألّمُ ويهتــفُ باسمِه، فــي الوقتِ الذي يرفضُه فيه عقلي.

أشعرُ بالحَيْرةِ، وبأنَّ ذهني مُبلبل.

*****

حائرةً في الحبِّ بينَ العقلِ والقلبِ والحُلْمِ والعذاب، رحْتُ أسألُ كلَّ من أراه: ما هو الحبّ؟

أمي.. أبي.. أخي.. (رانيا).. زمرةَ ثلّتنا.. زميلاتِ الدراسة.

وما زادوني إلا حيرةً على تِركتي، وتخبّطًا على ضلالتي.

فَمنْ رآه وهمًا، سببُه نشاطُ الهرموناتِ في فترةِ المراهقة.

ومن رآه خيالا صنعَه الشعرُ والقصصُ والأفــلامُ والمسلســلاتُ، فخلبنا جمالُه، وراحَ كلٌّ منّا يبحثُ له عن قصّةٍ ممتعة.

ومَن رآه لغزًا بلا تفسير، يجذبُ الرُوحَ إلى الرّوح، والقلبَ إلـــى القلب.

ومن رآه لا يأتي إلا بالعِشْرةِ الطويلة، نتيجـــةً لحســـنِ الخِصـــالِ والحنانِ والرّقّـــةِ وحُسنِ المعشر.

ومَن ومَن....!

إلى أن قابلْتُ (فاطمة).

*****

و(فاطمة) هي فتاةٌ متنقّبةٌ من كلّيّةِ (دارِ علومِ اللغةِ العربيّة).

ولِمَ لا؟.. لمْ يكُنْ بدٌّ من أن أسمعَ وجهةَ نظرٍ مُختلفة.

وعلى عكسِ ما تخيّلْتُ، لمْ تُنكرِ الحبّ:

- إنكِ تَتسائلينَ في بَدَهيّات.. قولي لي ما هو الضوءُ وما هي الجاذبيّة، أقُلْ لكِ ما هو الحبّ.. أقترحُ عليكِ شيئًا: تَعالَي نتحدّثُ عَـــن كيفيّةِ الحُبّ، بَدلا مِن ماهيّته.

راقَتْني الفكرةُ فبدأتْ تطرحُ نموذجًا غريبًا عليّ:

- في البدايةِ دعْكِ من كلِّ هذه الهلوسةِ التي ترَيْنَها بينَ الشباب.. إذا كانَ لا بدَّ منَ الحبّ، فما أحرى أن يكونَ حبًّا في الله، حبًّا سببُه طاعةُ الله ــ الأخلاق، وهدفُه طاعةُ الله ــ الزواج.

- ولكنْ.. ألا تشعرينَ أنّكِ لا تستمتعيـــنَ بالدنيا؟.. أعـــني أنَّ المرأةَ تحبُّ إظهارَ جمالِها للرجال.

- وهل قالَ لكِ أحدٌ إنّني أخالفُ النساءَ في هذا؟.. أنا فقط أؤجّلُ كُــلَّ شيءٍ إلى حينِه، إلى أن يهبَني اللهُ الرجــلَ الذي أمنحُه كُــلَّ جمالي وحبّي ووفائي، وأمضي معه في طريقِ الحياةِ إلى منتهاه.. إنّني شابّةٌ مثلُك، ولي نفسُ الغرائزِ والنزعات، وتهفو نفسي إلى ما تهفينَ إليه.. ولكنّي أحكّمُ عقلي وضميري.. وعقلي لا يقولُ إنّي سأحصلُ على السعــادةِ بتوزيعِ جمالي على كلِّ الرجال مجاناً، وضميري يقولُ إنَّ الشقيَّ حقّاً هو مَن يجلبُ إلى نفسِه سخطَ اللهِ بمخالفةِ أوامرِه.. صدّقيني: أنا أعيشُ في قمّةِ الرضا والاستقرارِ النفسي.

- ولكنْ.. ألا.. ألا تَخْشَيْنَ أن يفوتَكِ قطارُ الزواج؟

- فليكن.. افرضي.. هل هذا مبرّرٌ كافٍ لمعصيــةِ اللهِ؟.. عامّةً لا يحدثُ شيءٌ من هذا، فصديقاتي المُتنقّباتُ تزوّجْنَ أسرعَ من الأخرياتِ السافرات، ومعظمُهنَّ حَظِينَ بالسعادةِ في حياتِهنّ.. سأسألُكِ أنــا سؤالا هامّا: لمــاذا وأنتِ امرأةٌ عصريّة، ما زلْتِ تعتبرينَ أنّــكِ هباءٌ بدونِ رجل؟.. أنا مثلا أحاولُ أن أعيشَ الدنيا بوقار، أتطلّعُ إلى طموحاتي، أزيدُ من ثقافتي، وأقرأُ في الدينِ والتــراثِ والتــاريخِ والأدبِ والفلسفــةِ والعلــمِ وعلمِ النفسِ ومشكلاتِ الحياةِ وتوقّعاتِ المُستقبل.. إنّني أؤهّــلُ نفســي أخلاقيّا وعلميّا وثقافيّا، حتّى أجتازَ اختبارَ الدنيا وأحصلَ على نصيبي من الآخرة.. واللهِ إذا كانَ هناكَ رجلٌ يُسعدُه أن يرتبطَ بمن هــي مثلي، وتوافــرَتْ به صفاتٌ

مماثلة، فمرحبًا به وله احترامي وطاعتي وحبّي.. أمّا دونَ ذلك، فأنا لن أجعلَ من نفسي دميةً ممسوخة، جاريةً في سوقِ الرجال، سلعةً بلا عقلٍ ولا خُلُق!

- [يتعجّب]: أتدرينَ أنّني كُنْتُ أظنُّ كلَّ طالباتِ كلّيّةِ (دارِ العلومِ) سطحيّاتِ التفكير.. أعتقدُ أنّكِ تحطّمينَ لي هذه الصورةَ الآن.

- يا عزيزتي: لا دخلَ للكلّياتِ بالتفكير.. إنَّ التعليمَ في (مصرَ) ضدُّ التفكيرِ أساسًا.. كما أنَّ (دارَ العلومِ) على غيرِ مَا تتخيّلين، لا تدرّسُ التراثَ والشريعةَ فقط، فهي تتناولُ النصوصَ الحديثةَ ومدارسَ الأدبِ المستجدّة.. ولن أصدمَكِ لو قُلْتُ إنَّ مناهجَها للأسفِ تحتوي على بعضِ الخلاعات، لأنّها هي الصورةُ السائدةُ في الأدبِ الآن.. أقصد قلة الأدب!!

بصراحة: لقد جذبتني متعةُ الحوارِ معها للنقاشِ في كثيرٍ من المواضيع.

وبصراحةٍ أيضًا: اكتشفْتُ أنَّ هناكَ أشياءَ كثيرةً حَولي، كلُّ معلوماتي عنها تنحصرُ في انطباعاتي الذاتيّةِ الضيّقة، والصورةِ المشوّهةِ التي نقلَها التلفاز لي.

١٥- الحبُّ.. الضمير.. الحرّيّة

على نفسِ الوتيرةِ مضى العام.

تجمّدَ الوضعُ بالنسبةِ إلى (إياد) و(كريم)، والحزنِ الـذي يسـكنُ قلبي.

ولكنْ من المؤكّدِ أنّي كُنْتُ في بحثٍ دائمٍ عن ذاتي، وعن معـاني كلِّ الأشياءِ التي كُنْتُ أعتبرُها في عدادِ المُسلّمات.

في بعـضِ الأحيانِ كَـانَ (إياد) يحاولُ الاقترابَ منّـي، ولكـنَّ عرضَه لمْ يَكُنْ يتغيّر.. يريدُ الحبَّ والحرّيّةَ معا!

طبعًا كُنْتُ أتركُه وأنصرف.

أمّا (كريم) فقد كانَ دومًا هناك.. يختلسُ النظراتِ لي، ولكن يهربُ ببصرِه إذا وقعَتْ عيناي في عينيه، ويتركُ أيَّ جماعةٍ يقفُ معهـا إذا أقبلْتُ ويُقدمُ إذا أدْبرْت.

لمْ تتطوّرْ عَلاقتُه بـ (أحلام) رغمَ أنّها تكادُ تنتحرُ لتصلَ إلى قلبِه.

أعتقدُ أنّه ما زالَ يُحبُّني.

*****

وانقضي الفصلُ الدراسيُّ وانقضَتْ الامتحاناتُ.

شيءٌ واحدٌ لم ينْقضِ.. لم يضمحلَّ.. لمْ يتوانَ عن مطاردتي:

الحزن!

*****

رنَّ هاتفي، فنظرت إلى شاشته، ليطالعني اسم كريم شاكر.

تردد لحظة، لكني لم ألبث أن فتحت الخط قائلة بتوتر:

– ماذا تريد؟

جاءني صوتُ (كريم) يقولُ:

- لا أدري.. ليسَ هناكَ كلامٌ محدّدٌ في رأسي.

- [كأنّي أحادثُ نفسي]: تشعرُ بالحَيْرةِ، ولا ترى طريقَك؟

- نعم.

- تريدُ أن تفعلَ أكثرَ من شيءٍ مُتناقضٍ معا، فلا تفعلُ أيَّ شيء؟

- نعم.

- هوووه!

- كيفَ عرَفْتِ كلَّ ذلك؟

- يمكنُكَ أن تُخمّن.

- (سماح).. أنا.. أنا...

- أنتَ ماذا؟

- أنا أنتظرُ منكِ الاعتذارَ عن أشياءَ كثيرة!

- اعتذار؟!

- تعرفين جيّدًا أنّكِ قد أخطأتِ بحقّي.. كثيرًا.

- [بعدَ تردّد]: قد يكونُ معكَ حقّ.

- قد؟!

- إنَّ!

- حسنًا.. أنا منتظر.

- [بتردّد]: أنا.. أنا آسفة.

- هذه شجاعةٌ نادرةٌ منكِ.

- نادرة؟!

- بالطبع.. لأنّكِ إنسانةٌ مغرورة!

- مرحبًا بالنكد!

- [تردّدَ لحظة]: (سماح).. هــل.. هــل أستطيــعُ أن أحدّثَكِ عمّا بداخلي بصراحة؟

- نعم.

- أنا حائرٌ يا (سماح).. حزين.. كلُّ مفاهيمي تتشاجرُ في عنف.. أعترفُ لكِ: إنّني أحــاولُ ــ أحاولُ باستماتة ــ أن أنتزعَكِ من رُوحي.. ولكــنّي وجدتُ رُوحي قد تشبّعتْ بكِ، حتَّى صارَ انتزاعُكِ منها نــزعًا لها.. إنّ عقــلي يُنازعُ قلبي فيــك.. عقلي يحاولُ تحطيمَ تمثالَ المثاليّةِ الذي بناه قلبي لكِ من الحبِّ

والشعرِ والخيال.. وقلبي يتألّمُ باستمرار، يُدافعُ عنكِ باستماتةٍ ويلتمسُ لكِ الأعذار.. إنّني حَــزين.. من أجلِ حبّي اليائس.. من أجلِ ما يمكنُ أن يُصيبَك.. من أجلِ إيلامي لكِ بتدخّلي ــ رغمًا عنّي وعنكِ ــ في شئونِك.

وصمتَ لحظة، ورضبَ لعابَه بصوتٍ وصلَ إلى مسامعي، قبلَ أنْ يستطرد:

- ولا أدري لماذا اتصلْتُ بكِ الآن.. وجدْتُني ــ غائبًا عن الوعي ــ أطلبُ رقمَكِ وأسمعُ صوتَك.. يا لها من لحظةٍ حينَ سمعتُ صوتَك.. يااه!.. لحظةٌ خارجَ الزمن.. مضمّخةٌ بالحزنِ الذي لا ينتهي، لأنّها تغمسُني أكثرَ في آلامي.. ولكنّها مُترعةٌ بالسعادة، لأنَّ صوتَكِ يَمسُّ أرضًــا شاسعةً من رُوحي، فيترُكُها بُساطًا أخضــرَ راقصــا.. هوووه!.. لمْ أعدْ أدري ماذا يصيبُني.

- هل تحتقرُني حقًّا يا (كريم)؟

- أحتقرُك؟.. لا أدري!.. هذا ما وضعني في هذا التشتّت.. المؤكّدُ الذي لا أنازعُــكِ فيه، هو أنّي أحبُّكِ بجنون.. كيف أحبُّكِ وأحتقرُك؟.. إذن هل أحترمُكِ بعمــق؟.. كيــفَ وأنتِ تتجاوزينَ مقاييسَ عقلي وضميري التي وضعْتُها لشــريكةِ حياتي؟.. لا أدري حقًّا يا (سماح).. هذا يحتــاجُ لأن تذكري لي معنى الاحتقارِ أوّلا.

- بل اذكرْ لي أنتَ معنى الحبِّ أوّلا.

- يا له من سؤالٍ عسير، تزخرُ كتبُ الشعرِ والأدبِ والفلسفةِ، والروايـــاتُ وأقوالُ المحبّينَ بإجاباتٍ له، كلُّها كالبحرِ لا تروي ظمآنا.

- إنّني أسألُكَ عن رأيِكَ أنتَ يا (كريم).. ما هو الحبّ؟

- لو قُلْتِ لي مَن أنا، فسأقولُ لكِ ما هو الحبُّ في رأيي.

- قلْ أنتَ من أنت.

- أتتخيّلينَ أنّني لو عرفْتُ مَن أنا، لظلَلْتُ أنا؟

- هل هذه أُحْجِيَة؟

- أعنى أنّنا كلَّنا جئنا إلى الدنيـــا حتَّى نعرفَ مَن نحن.. هذه المعرفةُ هي التي ستُلْزِمُنا مراتِبَنا يـــومَ القيامة.. إنَّ أحـــدَنا لا يعرفُ مَن هو، إلا حينما يضعُ قلَمَه على ورقةِ الإجابةِ لتسليمِها.. لا نعـــرفُ إلا والرُوحُ تُغادرُ جسدَ هذه الدنيا، لتنطلقَ في المجهولِ المطلق، الذي هو عينُ المعرفةِ المطلقةِ واليقينِ المطلق.. باختصارٍ يا (سماح): إنّكِ الآنَ تُطالبينَني بإخبارِكِ عن نهايةِ فيلمٍ يُعرضُ لأوّلِ مرَّة، ما زلنا نُشاهدُ منتصَفَه.

- قد نستطيعُ التّنبّؤ.

- نعم.. ولكنَّ بأيِّ دقّة؟.. أنا قد أحدّثُــكِ الآنَ عنّي، فأقــولُ بثقــة: "أنا (كريم شاكر) في هذه اللحظة، ألتزمُ كذا وأقترفُ كذا، وأبدًا أبدًا لن أفعلَ كذا أو كذا".. ولكــنّي لا أستطيــعُ أن أقــولَ لَــكِ مَن سيكــونُ (كريم شاكر) غدًا، حينما تُوضعُ على كاهليه أعباءُ الحياة، ويصيرُ مسئولا عن أسرةٍ لها مُتطلّباتها، ويُنازعُه ضميرُه أن يفعلَ أشياءَ كثيرةً كانَ يَمقتُها، ولكنّها ستجعلُ حياةَ أسرتِه أيسرَ وأهنأ!.. كما لا أستطيعُ أن أقولَ لكِ مَن سيكونُ (كريم شاكر) بعــدَ غــد، حينما يُصيبُه العُمــرُ بالملل، ويجدُ أنَّ الأشياءَ القبيحةَ المستنكرة، صارتْ كأنّها أساسُ حياةٍ لا غنى عنه، مِن فرطِ اعتيادِها على مَــرِّ ثلاثينَ أو أربعينَ عــاما.. لا ولا أستطيعُ أن أخبرَكِ من سيكونُ (كريم شاكر) في آخرِ غــد له، حينما يرتجــفُ في خريفِ العُمْر، وأوراقُ الحياةِ تتساقطُ عنه.. هل سيعتبرُ نفسَه غبيًّا لمثاليّاتِه، وينــدمُ على عدمِ استمتاعِه بالدنيا، فيصبحَ كُــلُّ عملِه هباءً منثورا، أم سيُحــسُّ بالراحةِ والثّقة، وأنّه عــاشَ حياتَه كما أرادها فيموتَ مرتاحَ الضمير؟.. لا أحدَ يدري إلا اللهَ سبحانَه يا (سماح).

- [يتهيّب]: هذا كلامٌ مخيف.. إنّكَ تجعلُ مِن كلِّ منّا مجرّدَ ريشةٍ في مهبِّ إعصارٍ طاغٍ هو الحياة، لا يملكُ أيُّــنا فيها لنفسِه أيَّ اختيار.

- نختارُ أن نحلُم.. أن نحــبّ.. أن نتألّم.. أن نعجــز.. أن ننطوي في ظلامِ نفوسِنـــا.. إنّنا أحرار، أحرارٌ بطلاقة، ولكنْ في حدودِ فترةٍ زمنيّةٍ مُتناهيةٍ في الصغر، هي التي نستطيعُ الحكمَ من خلالِها على الأشياء.. إنَّ المستقبلَ مخيفٌ رهيب، لأنّه غامض، لأنّه متحرّكٌ باستمرار، لأنّه لا يأتـــي أبدا.. ولكنَّ الماضي كلَّه ثابتٌ جامد.. صورةٌ مُثبّــتةٌ على حائطِ نفوسِنا، نستطيعُ أن نتأمّلَها كما يحلو لنا، فيرى كلٌّ منّا فيها ما يروقُ له، كأنّها مرآةُ نفســه، وليستْ حقائقَ ثابتة ــ والمُنصفــون قليل.. لهــذا أعتبرُ التاريخَ كلَّه نقطةً واحدةً مُنصهرةً في الحاضر، لأنَّ كلَّ لحظةٍ من حاضــرِنا، تحملُ شخصيّةً أخرى منّا، لهــا أحلامُهــا المختلفــة، وثقافتُها المتزايدة، وتجارِبُها التي تشحنُها بالحكمةِ والخبرة، وكلٌّ ذلكَ هو ما يجعلُنا نغيّرُ من نظرتِنا لماضينا وتاريخِنا.

- [هززْتُ رأسي]: يا إلهي!.. ما هذه الفلسفــةُ المعقّــدة؟.. لقد أشعرْتَني بالتيهِ يا (كريم).

- هذا هو أوّلُ الثوابت.. مرحبًا بك.

- ولكنّي قد أخالفُكَ الرأي.

- وهذا ثابتٌ آخر، مع اتّساعِ كلمةِ قَــد إلى دنيا في ذاتِها.

- يعني: أنا أعتقدُ أنّي أرى نفسي بوضوح.. صحيحٌ أنَّ المستقبلَ مُبهم، ولكنْ لا بدَّ أن يوجدَ خيطٌ ما، يَنْظُمُ كلَّ خرزاتِ شخصيّتي معا، مهما كانت متباينة.

- معكِ حقّ، ولكــنَّ هــذا الخيطَ مبهمٌ بالنسبةِ لنا.. إنّه في يدِ الرحمن، الذي يقلّبُ القلــوبَ بينَ أصبعيــه.. قد يكونُ النفس.. الرُّوح.. السرَّ الذي يجعلُنا نحن، رغمَ اختلافِ ظروفِ البيئة، وحتميّةِ عواملِ الوراثة.

- أعتقدُ أنّكَ متشائمٌ قليلا؟

- إنّني أفتحُ عينيَّ جيّدًا حتَّى أراقبَ نفسي.. لا أريدُها أن تخدعَني.. أن تريَني ملاكًا وأنا شيطان.. خذي مثلا: أنا مُقتنعٌ أنّي سأضحّي برُوحــي في سبيلِ ديني ووطني بدونِ تردّد.. لكنْ ماذا سيكونُ موقفي في ميدانِ القتال؟.. هل سأنسى نفسي، وأتحوّلُ إلى آلــةٍ مبرمجةٍ للقتلِ وحصدِ الأرواح؟.. أم أنّي سأرتجفُ رُعبًا، وأنا أرى الموتَ وجهًا لوجه، حتَّى تعجزَ ساقايَ عن حملي؟.. أنا لا أعرفُ الموتَ لأنّي لم أمُتْ من قبل، لهذا أدّعي الشجاعة.. ولكنَّ الجبنَ والشجاعةَ سيتّضحانِ جَلِيّيَن، في اللحظةِ التي أختارُ فيها في ســرعةٍ وتلقائيّة بينَ الموتِ والحيــاةِ.. حينَــها لَن يكونَ هناكَ غيرُ (كريم شاكر) الأصليّ، بعيدًا عن غرورِه وخُيَلائِه وخَيالاتِه.

- [بعدَ تفكير]: كلامكُ يبدو منطقيًّا يا (كريم).. ويصدمُني.

- هذه هي القاعدةُ في معظــمِ الحالات: لا تكونُ الحقيقةُ حقيقةً، إلا إذا خالفَتْ هوى النفسِ واعتياداتِ الناس!

- إم.. أتدري أنَّ كلَّ هذه المحاورة، قد قادتْني إلى شيءٍ ليسَ في صفِّــك؟

- أدري.. ستقولينَ لي: "إذا لم تكُن تعرفُ مَن أنــتَ إلا ناظرًا تحتَ قدميك، فكيفَ تضمنُ أنَّ حبَّكَ لي سيدوم؟".

- بالضبط.. إنّكَ تُقدّمُ لي حبًّا مجنونًا، ولكنّه لا يعِدُني أن يكونَ أبديّا.. [بإعجاب] عامّةً: حضــورُ ذهنِكَ هذا، يدلُّ على أنّكَ تعي ما تقــول، وليسَ مجرّدَ هلوسة.

- و.. يعني كذلكَ أنّي صريح.. صريحٌ ولستُ...

- ماذا؟

- ولسْتُ مجرَّدَ (دون جوان)، أحاولُ أن أخدّرَ عقلَ فتاتي حتَّى أخدعَها.

- [أوغرَتْ عبارتُه صدري، وانقبضَ لها قلبي]: ولكنّكَ بذلكَ تُطالبُني بأن أخرجَ عن فطرتي.. إنّكَ تُقدّمُ لي شيئًا وقتيًّا، عُمــرُه الافتراضيَّ قصيــر، وبلا ضمانات، وتُطالبُني بأن أسلّمَ أنّكَ تُقدّمُ أحسنَ العروض!

- لم أقُلْ إنّــه وقتيّ، فنيّتي الثابتــةُ أنّه أبديّ.. ولكنْ أقول: إذا كانَ لنا نفسُ الضمير، فسيساعدُ أحدُنا الآخرَ للتغلّبِ على عثراتِه، وتذكيرِه دومًا بطريقِه، مُصوّبًا ضوءَه دومًا على نفسِــه، حتَّى لا تتوهَ منه في الظلام.. تأكّدي أنّنا إذا انتوينا، فإنَّ اللهَ سبحانَه سيُساعدُنا، سواءٌ كانت النّيّةُ شرًّا أم خيرا، حتَّى ييسّرَ لنا أن نكونَ نحن، ونُخرجَ كلَّ ما بداخِلِنا.. وهناكَ الكثيرُ من الآياتِ الكريمةِ التي تبيّنُ أنَّ اللهَ يزيــدُ المهتدينَ هُــدى، ويمدُّ الظالمينَ في طغيانِهم يَعْمَهون.

- [هززْتُ رأسي]: إيه.. مهلا.. لقد تشابكَتِ الأمورُ في رأسي.. وضّح لي باختصارٍ معنى حبّكَ لي.

- معناه أنّي وجدْتُ مرجعًا آخرَ لنفسي، أقارنُ به التغيّراتِ التي تطرأُ عليّ.. يعني أنّي قد وجــدْتُ نصفي الآخر.. عيني الأخرى التي أرى بها نفــسي، وترى نفسي بها الدنيا إذا كلَّتْ عيني.. ضميــري الآخرَ الذي سيمنعُني من الزللِ لو نــامَ ضميري.. هذا هو معنى حبّي لكِ.

- [تنهّدْت]: يا له من معنىً ثقيل!

- آسف.. لا أستطيعُ أن أقدّمَ لكِ حبًّا تافهًــا ممتعًا، مِــن نوعيّةِ حُــبِّ الأفلامِ والمسلسلات.. الحبُّ الحقُّ له هدف: الزواج.. والزواجُ شركةُ حياةٍ كاملة.. وعاءٌ ينصهرُ فيه جسدانِ وقلبانِ ورُوحانِ وعقلانِ وضميران.. ومِن هذا الوعاءِ تخرجُ براعمُ

جديدةٌ تحملُ هذه الصّهارة.. الحبُّ مسئوليّةٌ جسيمةٌ، وعَقْدُ تَحمُّلِ أعباء، قبلَ أنْ يكونَ مُتعة.

- أ.. ألا ترى.. أنّي سأنفرُ من هذا النوعِ من الحبّ؟

- على العكس: إنّه أجملُ بكثيرٍ من أيِّ نوعٍ آخر.. ففيه سنقتسمُ الحيـــاةَ معًا.. فإذا قسمْنا الحزن، فسيُصيبُ كلاًّ منّا نصفُ الحُـــزنِ فحسْب.. وإذا اقتسمْنا الفرْح، فسيُصيبُ كُـــلٌّ منّا ضعفَ الفرح.

- ها ها.. إنّكَ تُغالطُ في قواعدِ الحساب.

- بل أنا مُحقٌّ تمامًا.. فالحزنُ إذا أصابَنا، حاولَ كلٌّ منّا أن يحملَه عنِ الآخرِ حتَّى يُريحَه، فيتمزّقُ الحزنُ بينَنا ويتلاشى.. وفي الفرح، سيسعدُ كلٌّ منّا بسعادةِ الآخر، فيتضخّمُ الفرحُ فينا إلى ما لا نهاية.. ولو طرحْنـــا الحزنَ من الفرح، لكانَ الناتجُ هو إرادةَ الحياة.. أو الحبّ.

- [شاردةً في هذا الخيالِ الرائع]: يا لها من معادلاتٍ جميلة!

- [بلهفة]: إذن هل توافقين؟

- علاما؟

- على حلِّ هذه المعادلاتِ معي؟

- الـــ.. الموضوعُ أعقدُ من هذا بكثيرٍ يا (كريم).

- أنتِ تجعلينَه كذلك.

- لا تتسرّع.. يكفي أن أزلْنا اليوم، العداءَ العجيبَ الذي شبَّ بينَنا.

- سوءَ التفاهمِ تعنين؟

- سوءَ التفاهم.

- أ.. ليسَ من حقّي.. أن يكونَ لديَّ أمل؟

- [بحَيْرة]: لا أدري يا (كريم).. إنّني في منطقــةِ انعــدامِ وزنٍ الآن .. اتركْ لي فرصة.

- إلى متى؟

- إلى حينِ عودتي من الإسكندريّة.. سأُمضي مع (رانيا) بضعــةَ أيّامٍ هناكَ حتَّى تقَرَّ نفسي.

- [أخذ نفسًا عميقًا]: فلْيَكُن.. ولكنْ سأنصحُــكِ بشيءٍ واحدٍ فقط: قلبَــكِ وعقلَكِ وضميرَك.. لا تَنْسَيْ أيًّا منها وأنتِ تحاولينَ الاختيار.. إلى اللقاءِ يا (سماح).

- لقاءً يا (كريم).

*****

البحر.. الهدوء.. التفكير.

لقد حَسَمْتُ بعضَ الأمور، ولكنَّ الكثيرَ منها ما زالَ يُحيّرُني.

لا استسلمَ قلبي، ولا عقلي تخلّى عن هجومِه العنيف.

أرسلَ لي (إياد) رسالةً قصيرة عبر الهاتف، يقولُ فيها:

- أشتاقُ إليكِ.. أعرفُ أنّكِ ستعودينَ إليَّ في النهاية.

وأرسلَ (كريم) أخرى طويلة، كانَ أهمُّ ما قالَ فيها:

- أضحّي بحريّتي مِن أجلِك.. أنتظرُكِ حتَّى آخرِ العُمــر.. هذا فقط هو معنى السعادةِ عندي.

لا أدري.. لا تبدو الأمورُ بهذه البساطة، فأنا لسْتُ على اســتعدادٍ لأن يتلاعبَ بي أيُّ مخلوقٍ مرّةً أخرى.

أعتقدُ أنّي سأفكّر.. سأفكّرُ طويلا جدًّا قبلَ أنْ أتّخذَ أيَّ قرار.

ربّما شهرًا.. شهريْن.. ربّما عامًا.. عامين.. أو ربّما العمرَ كلَّه!

ومَن يدري!

قد أعرفُ ما هو الحبُّ يومًا، فأسعدُ أو أشقى..

لآخرِ يوم.

*****

[تمّتْ بحمدِ الله]

محمد حمدي غانم

كتبت في الفترة ما بين:

٦ / ١٩٩٧ ــ ١٠ / ٢٠٠٠